## الفصل السادس

# فاصـــل

بوصولنا إلى هينن في الظلام وجدت نفسي في بلاد تعيش إلى حدٍ ما حياة غير سهلة وحزينة تحت ظل الأطراف القصوى لأجنحة الإمبراطورية البريطانية العظمى. وبعد الظهر في ذلك اليوم وللمرة الأولى طوال رحلتنا من مكة سمعنا فرقعة البنادق البغيضة وقد أطلقها رجلٌ على آخر مثله بسوء النية. وكان علينا أن نرى ونسمع كثيراً من هذه الأحداث في الفترة القادمة. وصلنا أول نقطة حدودية لسلطنة القعيطي والتي تقف على فوهة واديها تحت المنحدرات الصخرية لأرضها الرأسية العظيمة -جزيرة في سلامٍ وحياد في جدول ضيق من فوضى نهد، مفصولة عن الأرض الرئيسة للسلطنة بامتداد عريض، لواد أجرد؛ لأن العداء العائلي جعل من الصعب على أي عائلة أن تزرع تربته أو أن تروي الرقع الصغيرة للنخيل الموجودة، وهي بقايا لبعض الفترات السعيدة في الماضي والتي تموت ببطء من الإهمال في الحاضر. وهينن نفسها مدينة صغيرة جذابة، بها منازل عالية مبنية جيداً وبها بعض النخيل على طول قاعدة المنحدر الصحري وإلى مسافة أبعد في أعلى الوادي.

وكان وصولنا عبارة عن مهرجان شعبي غير رسمي، وعلى الرغم من الظلام فقد أتى كل الرجال لرؤية السيارات التي قامت بعمل لم تقم به سيارات قبلها، وكذلك ليروا المرافقين على الجمال من نجد، أول زوار لهم من تلك البلاد البعيدة منذ أيام فيصل بن سعود[1] البعيدة، وهي أبعد من أن يدركها المواطنون الأكبر سناً في هينن. وحكومة القعيطي التي يطلق عليها دائماً دولة -والتي أيضاً تعني السلطان والذي هو حقيقةً الحكومة- تمثل بضابط شرطة يقود عدداً من الجنود، ولكن الجهة المؤثرة على الشؤون المحلية هي شريحة التجار من عائلة آل مرتع، الشيخ محمد بن سيد ك مرتع. توجهنا إلى منزله عندما أقمنا لنعسكر في مكان مبتل بمياه الأمطار

(١) الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

أمام المدينة. وهناك على سقفه المكشوف تحت السماء المرصّعة بالنجوم، وجدنا البناء مؤثثاً بسخاء بالسجاد والأرائك. وأخذنا راحتنا مع القهوة والشاي حيث دعاني الشيخ محمد بعد فترة بسيطة إلى غرفة متصلة ومؤثثة بمنضدة وكراسي جلبت من جاوة. وهناك مع سعد بن ناصر ورئيس المرافقين لي وقائد الشرطة ناقشنا خطط المستقبل، وبعد ذلك قمت ومعي المضيف بكتابة رسائل إلى السلطان والتي سلمت في الحال بواسطة أحد أفراد الشرطة العراة حتى النصف ومعه واحد من رفقائي وكان يلبس زياً مكتملاً.

ويلاحظ أن النجدي عموماً يستمتع بتساقط العرق الذي يتصبب إلى أسفل جلده بين طيات ملابسه الثقيلة ولا يمكن لأي شيء في مثل هذه المناسبة أن يجعله يخلع غطاء رأسه أو أي جزء من ملابسه عدا العباءة، ودعاهم مضيفنا أن يعدوا أنفسهم في دارهم وأن يبردوا على أنفسهم في هذا الجو القابض الرطب والثقيل فوق العادة ومع سقوط الأمطار حديثاً. وتخلصت من كل ما استطعت من الملابس دون أن أحرج رفاقي، وعموماً وجدت أن الوضع مريح عندما تخلصت من أول جزء من العرق. والزي الذي يرتديه أفراد الشرطة المحلية ويحسدون عليه بعض الشيء يتكوّن من عمامة من تماش خفيف تلف حول الرأس، وجذع عارٍ تماماً حتى الخصر الذي يبدو أنه مثقل بطريقة غير مريحة بحزام مليء بطلقات البندقية وزوائد أخرى تعمل على تثبيت الخنجر الكبير المعقوف وتحتوي على نفايان مثل: تلك التي يضرب بها المثل في جيوب أطفال المدارس الإنجليزية. ويلبس أفراد الشرطة إزاراً عادياً أو إزاراً أسكتلندي الطابع خفيفاً يصل من مفصل الورك حتى الركبة، إضافة لبندقية ضخمة تحمل على اليد أو تعلق على الكتف والفوهة إلى أعلى. والشرطي المحلي يبدو عملياً وتظهر عليه صرامة العسكرية، ويكن عموماً له جاذبية لاسيما وأنه عنصر ذو أخلاق حميدة في مجتمعه.

قُدم لنا التمر ونحن جلوس فوق سطح البناء وذلك لتزجية الوقت بين وصولنا وتقديم وجبة العشاء التي قدمت لاحقاً في تمام الساعة ١١ مساء، وكانت عبارة عن

أرز ولحم ممتاز أكلناه جيداً ثم جلسنا داعين الله سبحانه وتعالى أن ينعم على مضيفينا لحسن ضيافتهم لنا. ولم يمض وقت كبير حتى عدنا إلى معسكرنا وأسرعت لترتيب ملاحظاتي الهائلة جداً حتى أتمكن من الحصول على راحة جيّدة في الليل. وكنت قد قررت أن أجعل كل أيامي في حضرموت رحلة للمتعة في أيام العطلة بلا شعور بالتزام وارتباط بالعلوم أو الإنسانية، وهي المهمة التي قام بها كما يفترض مسافرون كثيرون من الذين زاروا المكان في الماضي القريب أو البعيد. ودون صعوبة يمكن لأي شخص له إلمام بتاريخ الاكتشافات العربية أن يذكر عدداً من الأسماء لزوار أجانب لوادي حضرموت، بعضهم أكثر جدية وآخرون أقل جدية كمساهمين بالإضافة للمعرفة الإنسانية عن الوادي الذي يبدو أنه الأكبر وبه إمكانيات رخاء أكثر إذا ما قورن بأودية الواحات العربية الأخرى.

وثمة نظرة إلى الخرائط الموجودة الآن للمنطقة تبين أنه ما زال هناك مجال كبير لعمل مسح مفصّل، ولكني على أي حال لا أستطيع أن أجد الزمن الكافي لعمل ذلك؛ وهذا لارتباطي العميق بالعمل في اتجاهات أخرى من قبل. ولكن أفترض أن الموقع الحقيقية للنقاط الأكثر أهمية في الوادي قد ثبتت بواسطة باحثين سابقين عن هيئ؛ لذلك كنت مهتماً بمراجعة الدقة العامة لأجهزتي وكان سعيي في إنجاز ذلك ناجحاً ولكن كلفني ساعة أو ساعتين وهو الزمن الذي كان مخصصاً للنوم. وكان المساء عند وصولنا وضاءً وواضحاً، فالنجوم تظهر بكل رونقها وعظمتها، ولكن الظروف الجوية الناجمة عن حدوث عاصفة بعيدة في الشمال منعتني من التقاط توقيت غرينتش من القدس، ونظراً للانتظام المثير للإعجاب لواحدة من ساعاتي فقد كان أثر ذلك بسيطاً، عندما أصبح كل شيء جاهزاً لممارسة هوايتي الخاصة بالنجوم، تعطل المصباح الكهربائي مما أضاع وقتاً طويلاً حتى استطاع سعد إصلاح العطل. ولكن بعد إصلاح المصباح بقليل بدأت النجوم في الاختفاء خلف السحب، ثم اكتشفت أن النجم القطبي كان يختفي خلف مقدمة المنحدر الصخري الضخم الذي

يقف شاهقاً فوق المدينة. هذه الحقيقة حتمت عليَّ تحريك جهاز مقياس الزوايا إلى موقع مختلف وتكبدت كل المشاق لإعادة تعديل مستواه. وبعد فترة تغلّبت على كل العوائق بعناد وصبر. وبقي لي فقط انتظار إيجاد النجوم المعروفة في الفضاء المحاط بالسحب ورؤيتها حين تتحرك بسرعة من حماية سحابة إلى أخرى. وكان الوقت متأخراً قبل أن يصبح ضميري صافياً وذلك بعد أن خططت بالقلم موقع هيئن على الخريطة وكذلك فإن ضجة العمليات اللوغاريثمية في عقلي لم تزعج أحلامي الأساسية بقضاء إجازة في أرض حضرموت ولن يُفسد شعور قوي سخيف في أن أقوم بواجبي تجاه الإنسانية والعلم، هو شعور سرق مني ساعات من النوم تحت السماء الملبّدة بالسحب في الأسابيع الماضية.

نمت نوم قرير العين، وكانت الشمس عالية في السماء عندما استيقظت لأجد جمهرة من المعجبين بعمق نومي. ناديت على إبراهيم ليجهز لي الشاي وأخذت إناء الماء وذلك للاغتسال مستغلاً الخصوصية التي تمنحني لها السيارة ثم صليت صلاة الصبح أمام الكثير من المشاهدين من سكان المدينة والذين بلا شك معتادين بما يكفي على أداء العبادة في مثل هذه الساعات المتأخرة. وكنت نادراً ما أجلس لتناول الشاي دون أن يأتي زوار ويجلسون حولي، بعضهم أذكياء ولكن هنالك البسطاء من أقارب آل مرتع الكبير والذي كان شقيقه عوض -الآن في بتافيا- يعمل كمرشد وفيلسوف وصديق وسائق لفان دير مولين وفون فيسمان بمناسبة زيارتهم لهذا الجزء من حضرموت في سنوات مضت. وفيما يبدو، فإنهم وجدوا هيئن في حالة متقدمة من الدمار والضعف التي عزوها كثيراً إلى الزحف الثابت للصحراء في الوادي. ولكن السبب الحقيقي لمثل هذه الفترات من تدهور الحضارة في نظري يعود إلى الشر الذي يفعله الناس والذي يبقى بعدهم. وبعيداً في أعلى الوادي باتجاه الغرب من هنا في الخشعة ومناطق أخرى هنالك مساحات شاسعة من الأراضي القابلة للزراعة الآن والتي تظل مهملة، وسبب ذلك فوضى نهد الداخلية المهلكة والتي هي بالتأكيد الاقل

جاذبية في المجموعات القبلية التي لي صلة بها. وعلى كل حال فإن هين التي أصبحت الآن تتبع للقعيطي منذ عشر سنوات يبدو أنها قد استعادت بعض رخائها الذي كان موجوداً في الزمن الماضي، والفضل يرجع إلى الحماية التي وفرتها الدولة ومشاريع آل مرتع التجارية التي جلبت ثرواتها من جزر الهند الشرقية. ومع أن القرية تبدو واحدة في مظهرها الخارجي ولكنها حقيقة تتكون من جزأين، الحزم إلى الغرب وهين إلى الشرق. فالجزء الأعلى من الحزم يتكون معظمه من خرائب مهجورة قديمة ولكن هذه قد استبدلت بواسطة سلسلة جميلة من مبانٍ جديدة نسبياً بعضها مميز، تقع على طول قاعدة المنحدر الصخري. والمظهر العام للقريتين المتحدتين يعكس رخاء يرضي النفس. الشيخ محمد بن مرتع واحد من هؤلاء الرجال الذين تميزوا بحسن المعاملة فأصبحوا مثالاً للتهذيب والتحضر، وهو عموماً رجل جذاب ومضياف وذو خبرة واسعة وذكاء وقّاد. وكان لي أن ألتقي بالعديد من نوعه في الأيام العشر القادمة وكان هو الأول وقد ترك انطباعاً مرضياً عندنا جميعاً.

بعد أن فرغت مباشرة من استقبال الزائرين، تركت تعليمات للتجهيز للرحيل باكراً وذهبت إلى منزل ابن مرتع لتناول الإفطار المكوّن من شاي وتمر. وبما أن الشيخ محمد سيرافقنا إلى القُطنْ لم يكن هناك سبب خاص للتأخير أو الاستعجال وكانت الساعة تشير إلى العاشرة قبل أن نبدأ الرحلة. في هذه الأثناء كافأت المرشدين الذين أرشدونا من قعوضة. أما آدم الشيخ الصغير من قعوضة فقد كان أنموذجاً للإنسان الطيب الذي لم يعله شيء سوى قطعة جوخ متدلية حول الخصر.

في طريقنا إلى خارج القرية عبرنا قناة تصريف مكشوفة تنقل مياه مجاري القرية إلى بالوعة مجاورة. ومررنا على بقايا مفككة لما كان موقعاً لمولد كهرباء عندما كان ابن مرتع يضيء منزله بواسطة الكهرباء. دخلنا في الوادي عبر كثبان الرمال المتلاطمة المنقطة بالقبور البيضاء النظيفة بمنطقة الدفن (المقبرة) المحلية. وكان الشيخ محمد يركب معي بينما كانت السيارة الأخرى ممتلئة إلى سعتها القصوى بما يعادل

سبعة أو ثمانية أشخاص وكتل من الأمتعة. والمساحة الكبيرة من الأرض الطفلية (رمل وطين) القابلة للزراعة والمعتمدة على هينن تتميز باستقبال السيول من جانبي الوادي أما المصدر الأكثر أهمية فهو قناة سيل وادي الكثير التي تجمع تصريف أودية دوعن وعمد ويسر في المصب العظيم حورة -قعوضة لتصب إلى أعلى في الوادي ويصرف وادي هينن السهل الشاسع، وفمه يتموج بأمواج منخفضة من الرمال ويبلغ عرضه حوالي ثلاثة أميال على طول طريق السيارة حيث يتحد في الوادي الرئيس تدريجياً. وبعد وصولنا إلى الأرض الرأسية مباشرة في الاتجاه المعاكس والتفافنا على طول حافتها لبعض الوقت سرنا بعيداً من الضفة الشمالية للوادي عبر المنطقة الرملية الواسعة التي تملأ وسطه. وهنا، تحت الأرض الرأسية -الأرض غير المحروثة- تقع القرية الصغيرة جوعة آل مهنا وهي مستوطنة نهدية مبنية من قسمين يبعدان عن بعض بحوالي ٣٠٠ ياردة كأنها نصب تذكاري من النزاع والفوضى. ولا يوجد أي إنسان ظاهر في أي من القسمين، ومررنا دون تحية أو تحدٍّ تحت عيون كل الذين لا يمكن رؤيتهم ولكن يروننا زمرة من القنّاصين الذين يتمركزون على أسقف المنازل خلف الطرف الغليظ من البنادق وهم جاهزون دائماً لإطلاق أعيرتهم النارية عند ظهور أي شيء يشبه هدفاً بشرياً في القسم المنافس.

والشخص الغريب عندما يمر بمنطقة النزاع يُقدس وسابقاً كان النساء والأطفال من القسم المنافس يتمتعون بالحصانة نفسها ولكن السنوات الحالية تميزت بتكثيف وتصعيد للكراهية المحلية وقبل يومين فقط أو ثلاث قبل عودتنا إلى هينن عند نهاية إجازتنا في حضرموت كان هناك اثنتان من النساء تقدمتا لجمع الحطب لإشعال النار فقتلتهن طلقات من أبناء عمهن. ويمكن لهؤلاء الناس أن يتجرؤوا ويخرجوا فقط تحت غطاء الظلام، بينما بساتين نخيلهم الصغيرة تموت لانعدام الري وحقولهم من غير فلاحة، قرى منافسيهم المهجورة منظرها شديد الكآبة وغير محبب للرؤية وهذا كله يعد دلالة بليغة على أخلاقيات وآثار الحماية البريطانية، وهو موضوع سنتطرق له

لاحقاً. وكنت أتعجب قليلاً لماذا لا يطلق علينا هؤلاء الناس الأنانيون النار من أسقفهم الساكنة، ولكن الإجابة سهلة،ليس لديهم الرغبة مهما يكن لإيذاء أي شخص غير أقاربهم وأنسبائهم وجيرانهم. ومن ناحية سيكولوجية فهي حالة من السعدية[1] المتقدمة جداً أو المازوخية[2] في بقايا مرضى من جنس شديد الانحطاط. وهذا المرض يمكن معالجته بسهولة ولكن المعالج المحلي ينظر دون أن يمد يد المساعدة أو غير مبالٍ فهو فقط مهتم بمنع الأطباء الآخرين من التعدي على عمله.

استمر الطريق في خط مستقيم تقريباً ولكن انحناءة للوادي جعلت قطره يقطع الأرض الرأسية فورت على ضفته اليمنى على بعد خمسة أميال. وطريق السيارات يقع معظمه فوق أرض من كثبان رملية خفيفة مغطاة بعض الشيء بواسطة شجيرات صحراوية، ولم تكن هناك صعوبة شديدة للقيادة ما عدا أنه كان من الضروري أن نبطئ في بعض الحالات مستعملين ترس السرعة الثاني. وبهدوء وصلنا إلى بستان نخيل ضبعان تحت الأرض غير المحروثة، وهناك عبرنا الخط الحدودي الذي يسم أرض نهد من المنطقة التي تقع تحت السلطة والحكم المؤثر لسلطان القعيطي تمتد من هنا دون انقطاع؟ لقناة السيول بوادي ابن علي وراء شبام. وبالتأكيد هنالك رخاء وأمن أكثر في هذا الجزء من الوادي والذي يمتد فيه الحزام الأول لبساتين النخيل عملياً دون انقطاع إلى مسافة طويلة خلف مدينة -القُطنْ- إلى خمسة أميال أو أكثر. ولكن القريتين اللتين تتبعان إلى مستوطنة فورت يمتلكهما جنود السلطان، غالباً وكانتا حتى وقت قريب في حرب مع بعضهما، وفي هدنة تحت ضغط السلطان لمدة ١٠ سنوات متفق عليها. حتى الآن كما أذكر فهذه هي النقطة السوداء الوحيدة في اللوحة النظيفة للسلام القعيطي التي لاحظناها في وادي حضرموت.

---

(١) لسادية: اشتقاق اللذة عن طريق القيام بتعذيب الآخرين، وهي تنسب للماركز دي ساد (١٧٤٠-١٨٨٤). قاموس عبدالقادر طه وآخرون، معجم علم النفس ص٢٢٣. (المراجعون).

(٢) للمازوخية: اشتقاق الفرد للذة من قيام الآخرين بتعذيبه وتوجيه العدوان إليه، تنسب إلى الكاتب النمسوي ساخرماروخ (١٨٣٦-١٨٩٥م) والمازوخية نقيض السادية وعكسها. المرجع السابق، ص٣٨٩. (المراجعون).

خلال مسافة ميلين مررنا من فورت إلى المستوطنة المبعثرة ديار البكري، ثم على طول القرية الكبيرة قرية الخيبة من أضرحتها المقدسة الشبيهة بالقباب، وفي النهاية مررنا خلال البوابة الشمالية الغربية للمدينة المحاطة بالجدران، مدينة القطن، والتي أيضاً تسمى حوطة القعيطي والريضة حسب المزاج. وكنا نقود سيارتنا بحذر عبر جمهرة من الأطفال الذين أتوا في اندفاع إلى الطريق الرئيس الضيق على مقربة من البوابة الجنوبية والحائط. وكان السلطان علي بن صلاح، ابن العم الثاني للسلطان صالح بن غالب سلطان المكلا وتحت سلطته العليا أيضاً، سلطان القسم القعيطي من وادي حضرموت شبه المستقل، على باب القصر فتقدم لتحيتنا وقيادتنا إلى غرفة عليا كبيرة الأبعاد، ذات أثاث جذاب من كراس ومناضد وسجاد من جاوة. أجلسنا على الأرض نتكئ على وسائد سميكة وقُدم لنا الشاي بينما كنا نتحدث ثم نشر الغداء على قماش أبيض على الأرض لنا جميعاً. وشرفنا السلطان بمرافقته في وجبة الاستقبال الأولى. أما في الوجبات التالية فقد كنا نشارك السلطان سعد بن ناصر ضيفاً آخر قد يكون هناك – ابن مرتع مثلاً. ووصل السيد في اليوم التالي من عينات إحدى مستوطنات القعيطي في أسفل الوادي خلف تريم بينما باقي مجموعتي يبدون كلياً في غير مكانهم في هذا المحيط السلطاني الفخم، وقد قدم لهم الطعام منفصلين في الأسفل.

كانت معجزة وصولنا من مكة حتماً المادة الرئيسة للمحادثات الأولى وقد حسم السلطان على القيام برحلة الحج بالسيارة في المستقبل القريب كبداية لرحلة كبيرة إلى الخارج. وعند انتهائي من موضوع حضرموت أصبحت متعباً من تكرار هذه المادة، لأن الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين تعرفت عليهم حديثاً تجعلني أقوم بالإجابة عن مجموعة كبيرة من الأسئلة عن تفاصيل الطريق التي في معظم الحالات قد سبق له من قبل بواسطة شخص آخر كان قد استمع إلى سردي. وعلى كل، فإن الموضوع ما زال حديثاً وحياً والاهتمام الشديد الذي وجده عند الجميع هذا الكشف لطريق الحج بواسطة السيارات شجعني على القيام بتسجيل كل المعلومات في كراستي لكي تكون جاهزة في متناول يدي حتى أتمكن من الإجابة عن كل الاستفسارات.

والهيكل المقترح الذي وضعته للرحلة أمام الجمهور ليتأملوه هو مدة الرحلة عشرة أيام ومسافتها ١٥٠٠ كيلومتر، كل سيارة تحتاج إلى ٦٠ جالوناً من الوقود. وبالنسبة للأمن وهو الشيء الذي يشغل بال كل مسافر في بلاد حضرموت ذكرت لهم أنه لا داعي للقلق على الناحية الأمنية في الطريق من العبْر إلى مكة. وللوصول إلى العبْر في أماد -ما يعادل ١٠٠ كيلو متر أو أكثر بقليل- يجب أن ينظموا صلحاً للقضاء على مشاكلهم المحلية. وكنت أدرك تماماً أننا قد فتحنا طريقاً عملياً للحج في البر من حضرموت ولكن الفضل الكبير يعزى للاهتمام النشط للسلطان علي، -والآخرين الذين قابلتهم فيما بعد- في أن هذه التفاصيل ظهرت بهذه العجالة من غموض مذكراتي.

كان علي بن صلاح رجلاً يبلغ عمره أقل من خمس وثلاثين سنة ويبدو أصغر من ذلك بكثير، متوسط الطول، ليس له لحية، وشنبه صغير وجسمه رفيع، رأسه طويل ونحيف ينتهي إلى انتفاخ كبير في الجمجمة. ومن ناحية فكرية فإنه عالم أكثر من ملك، ولكن نشاطه كإداري لاسيما حبه باستمرار في الحركة من مكان إلى آخر في منطقته -قد يصحح ذلك الانطباع. وهو مهتم بعمق بواجباته كحاكم وكذلك كثير الاهتمام بالسلام وتطوير البلاد التي تتبع لسلطته. ولكن عندما يكون في فترة الاسترخاء والامتاع الشخصي تجد في الحال أن مزاجه الشخصي يميل إلى قراءة الكتب ومساجلة الأفكار والمعرفة. وبالنسبة لشخص لم يغادر بلاده أبداً فإن نظرته العقلية ومعرفته الواسعة بالعالم تعد مدهشة. وهو متحدث سهل وطبيعي ويمتلك الكثير ليحكي عنه، ومن الواضح أنه يقرأ كثيراً. وقد وجدته أكثر شخص مرن يمكن مناقشته من بين كل الذين قابلتهم في هذه البلاد. أما السلطان علي بن منصور الحاكم الكثيري لسيئون فيمكن أن يعد قريباً منه. فكلاهما له القدرة على التحدث طبيعياً دون أن يساءل أحدهما هل يتحدث أم لا. ومن جهة أخرى، فإن الآخرين الذين قابلتهم خلال هذه الأيام قليلو الكلام دون أن تكون هنالك دوافع بعيدة لصمتهم، وآخرون يتحدثون كثيراً دون تمييز أحياناً ويسببون قليلاً من الضجر عندما يسمح لهم تهذيب

وصبر مستمعيهم بفرصة أكبر، فأشخاص كهؤلاء يعدون أقلية. ومع ذلك فهنالك آخرون يملؤهم التفكير العميق والأفكار العظيمة والآراء المتطورة والحذر والحكمة في نقاشهم خشية أن تكون للحيطان آذان فتنقل كلماتهم إلى أقصى نهايات أرضهم. والمجموعة الأخيرة ومعهم العليان (علي بن صلاح وعلي بن منصور) يبدو لي أنهم يمثلون خلاصة الموهبة المحلية.

يبدو القصر مبنياً حديثاً من ثلاثة طوابق كان هو مدخلي لآخر أسلوب معماري لحضرموت والذي وصل ذروته في القصرين العظيمين في سيئون التابعين للكثيري. وفي المظهر العام قد يلفت الناظر إليه على أنه ذو تصميم أوربي ولكنه حقيقة ينسجم -بصورة مثيرة للعجب- مع المعمار المحلي والذي يقف في وسطه كما يجب أن يكون القصر. وحقيقة أن التصميم البلدي المحلي له ميزة عظيمة، فحيطان الطين في المنازل صقلت جيداً للغاية خلافاً للتجصيص الطيني غير الناعم الذي يرى في نجران مثلاً والذي يكون فيه المعمار المحلي قريباً في التصميم العام من ذلك الموجود في حضرموت أكثر من أي مكان آخر أعرفه. وإذا أردنا الإشارة إلى دلالة أفضل فسوف أذكر هنا الأسلوب العام للبناء في شرق اليمن والذي يهدف بشكل أساسي للدفاع ضد الأعداء. وحقيقة، فكل منزل في شرق اليمن يمثل قلعة في تصميمه بينما نجد الشيء نفسه في حضرموت جنباً إلى جنب مع مبان ذات خواص عسكرية أقل وميزات فنية أكثر عظمة في داخل احيطان بالمدينة ومهمتها الدفاع عن الجميع. وعليه فإن الأوجه الملساء لحيطان الطين وكأنها مطلية، بها نوافذ خشبية ذات تصميم جميل: أقواس مغربية (مراكشية)، شبكية، وأقواس على شكل قباب. ويلاحظ أن لطين المحلي شديد التماسك وشديد التحمل. والقصر ليس كعامة المنازل فهو مغطى تماماً بزخرف أبيض من الجبس المحلي وهو ليس فقط للزينة ولكن لتقوية سطح الطين ضد الأمطار. وقد يفترض الشخص من مظهرها أنها مبنية من الحجر والأسمنت، ولكن في كل حضرموت فإن الحجارة والأسمنت استعملت فقط في الأساس أو كحاجز

ضد السيول. وداخلياً تطلى بالجبس، وبالجزء الأعلى من الحيطان لون بظلال رقيقة من الأخضر والأزرق وألوان أخرى للتناقض مع اللون الأبيض الباهر في الأسفل. وبالطبع هنالك اختلافات لا نهاية لها في تأثيرات التزيين من منزل إلى آخر ولكني لا أستطيع أن أتذكر أني قد رأيت مبنى قديماً أو حديثاً خارجياً أو داخلياً يُظهر ذوقاً سيئاً. ولم يكن هناك أي شيء مزخرف أو سوقي (مبتذل) في معمار حضرموت الآن ما عدا النافورة في الحديقة الجديدة في مجمع السيد أبي بكر بن الشيخ الكاف في سيئون. وهذا هو الاستثناء الوحيد الذي أتذكره للقاعدة العامة للذوق الرفيع الهادئ. ونظراً لصعوبة الحصول على الأخشاب فإن الأسقف في الحجرات بكل أحجامها كان لابد أن تدعم بأعمدة طينية -في بعض الأحيان الأعمدة الخشبية تغلف بالطين والجبس- عمود واحد أو أكثر. أما غرف الاستقبال التي تخص ابن مرتع في هينن فبها أربعة أعمدة كهذه تكوّن مربعاً في الوسط. وقاعة الاستقبال في القطن بها (٦×٢) من الصفوف تكوّن مستطيلاً في وسط الغرفة. وفي كل الحالات تقريباً تفضل الأعمدة الرفيعة التي لا تقلل من مساحة الغرفة بصورة كبيرة. ولفت نظري هذا القصر كمسكن له سحر عظيم؛ ولذا فإنه ليس من المستغرب أن يستخدمه السلطان علي في أوقات كثيرة من العام، مفضلاً إياه على القصر الكبير في شبام والذي مع كبره فإنه عتيق بعض الشيء وغير مريح. ويلاحظ أن الحمامات ومكاتب الأسرة كما رأينه من قبل في هينن وقعوضة ساهمت في إظهار القواعد الصحية الحديثة أكثر من الشعارات والأقوال.

وعلى مقربة من القصر يوجد المسجد المحلي الذي يطغى عليه القصر، وهو مبنى جذاب من الطين المزخرف بالجبس الأبيض وبه باحة في الوسط مفتوحة ومحاطة بصف أعمدة غير عميقة. وإحدى زوايا المسجد تعلوها مئذنة ارتفاعها يماثل ارتفاع المبنى نفسه. والبناء ذو تصميم يشبه السلال. وخلفه ينظر الشخص إلى خلفية من أشجار النخيل خارج حائط المدينة إلى الشمال والغرب. وكذلك في جانب آخر توجد

طرقات متعرجة ومباني منطقة مدنية صغيرة تكوِّن أفضل منازلها قوسًا غير منتظم حول فضاء واسع بينها وبين القصر. والبوابات والجدران ليست مميزة ما عدا الجزء من الأسوار الذي يتبع خطوط الانحدار عند قاعدة الجرف الصخري العظيم، ٥٠٠- ٨٠٠ قدماً من الحائط الصخري. وفي كل طرف في هذا القسم من المدينة تقف المباني المستخدمة للدفاع جذّابة، ولكن جزئياً، كقلعة مربعة متهدمة وهي ليست مأهولة بالسكان. وبعيداً في الخارج باتجاه الشرق تمتد بساتين النخيل الكثيفة حيث تتناثر حولها المساكن التي تشبه الحصون وبعض القرى الصغيرة باتجاه حافة السهل العريض ذي الرمل الخفيف الذي تنمو فيه محاصيل القمح والدخن عندما تروى بالأمطار. وخلف ذلك تبدأ بساتين نخيل آخر نخيل شبام والقرى التي تعتمد عليه.

وقد تركنا نجران في بداية موسم التمر منذ حوالي ثلاثة أسابيع ولكن وجدنا وادي حضرموت في نهاية الموسم الذي امتد لشهرين. فهم الآن يقطعون عذوق التمر لتخزين الثمار، ولكن كنا محظوظين لنحصل (بصعوبة) على ثمار طازجة. والقدر القليل من زراعة الفاكهة الثانوية أدهشنا دون أن يسعدنا ولم يكن ممكناً الحصول على عنب أو تين أو رمان. وهنالك نشاط بدأ من قبل لتصبح هذه الفجوة التي يسهل تصحيحها. وسوف أذكر النتائج لهذا النشاط في وقت آخر عندما تصل المنطقة الأكثر تقدماً من الوادي. وحتى هذه اللحظة فإن التمر الحجيري الأسود، أفضل في المرحلة الأخيرة مع اللون الغامق، وتمر الحزيز يمنحان تنوعاً لطيفاً في وجبة من اللحم والأرز، والخضار قليل كالفاكهة. ويبلغ عمق الآبار في القطن سبع أو ثماني قامات خلافاً لآبار هين وقعوضة والتي قد يبلغ عمقها ثماني عشرة قامة وكبداية استخدمت هنا مضخة تدار بماكينة للضخ وقد استخدمت أيضًا للإنارة الكهربائية المؤقتة وعصر الماكينة أحدث تحولاً في حياة أهل المنطقة لاسيما في أسفل الوادي وسوف ينتشر استعمالها في المناطق المذكورة في المستقبل لتعم الفائدة الكبرى الجميع.

اليومان اللذان قضيتهما في القطن كانا لطيفين دون عمل وكانا هما أول أيام الراحة منذ أيام نجران. ولم أتحرك خارج القصر الذي يطل على منظر كافٍ لكل ما أود أن أرى. وكان المساء لطيفاً جداً، وكنا نتحدث على سجيتنا عندما نجلس قبل وبعد وجبة العشاء (وثانية في الصباح الباكر) على المصطبة (الدكّة) الممتدة من مستوى الطابق الأول. وفي أعلى تسكن أسرة السلطان، والأعضاء الوحيدون الذين رأيناهم هم الأبناء الثلاثة للسلطان صالح وسالم وفضل. فالأول هو الأكبر ويبلغ عمره ١٢ سنة ويتلقى تعليمه باللغة الإنجليزية بواسطة معلم كان في سنغافورة. ويفكر السلطان قليلاً في إرسال أبنائه إلى بغداد لتكملة تعليمهم وذلك لأنه يخاف من تأثر مصر وجيرانها بالغرب المتقدم. ومن المؤكد أنه قد يكون منزعجاً الآن لسماعه أن العراق تبدو حديثة في مظهرها العام كأخواتها. وبالنسبة لعربي من المدرسة القديمة (جيل الكُتّاب) هنالك تضارب محدد بين الحداثة من جهة والأخلاق والقيم من جهة أخرى. وهذا التضارب واقع ولكنه فقط عرضي. والمجهود لخلق انسجام بين الجيّد والمهم في حضارة الغرب المادية مع المبادئ الأساسية للفضيلة والطهارة العربية يحتاج لنضال شرس وعنيف إذ لا يمكن لأمة أن تعيش في المستقبل دون الحاجة للأدوات المادية للعلوم الحديثة. والمشكلة الأساسية هي استعمال هذه الأدوات دون أن ندعها تقلل من أهمية أسس وقواعد الإنسانية. ومازال الناس في أوربا وأمريكا بعيدين عن حل المشكلة. فالمنطقة العربية ما زالت منكمشة من مواجهة معانيها الكاملة. ويبدو أن من التعقل اتباع أسلوب عدم الاستعجال والتقدم بحذر. ولكن مستقبل هذه المنطقة غير متوازن كما هو الحال في كل العالم حولها.

المشكلة العاجلة في حضرموت تتصف بالمحدودية وتتلخص في الفوضى وعدم الاستقرار. وقد كثفت المشكلة بقدر ما بسبب الانهيار الاقتصادي في كل أنحاء العالم الذي أثر على رخاء وثراء المواطنين الحضارمة من سنغافورة، وجزر الهند الشرقية الهولندية[1]. وهؤلاء الناس الذين حتماً تقلصت تحويلاتهم الكبيرة الآن، كانوا في

(١) إندونيسيا الآن. (المراجعون).

السابق دماء ترفد الحياة للرفاء المحلي. والضريبة الكبيرة في المستعمرات الهولندية إدا قورنت مع الضرائب القليلة في الملايو البريطانية تعرضت لبعض النقد، والمعاملة الصعبة من الإدارة الهولندية كانت موضوعاً لبعض الاحتجاج ولكن التصرف السلبي لسلطات حكومة الوصاية في عدن- أو بمعنى آخر الحكومة البريطانية- كانت هي الموضوع الرئيس للاهتمام المباشر لحكام وقيادات المواطنين في حضرموت. وفي هذا الوقت، في قعوضة والقطن أخذ الاحتجاج شكل شكوى وتذمر بأن القوى الحامية سوف لا تمد السلطات المحلية بالأسلحة والذخيرة لتجعلهم قادرين على بسط وتأسيس السلام والأمن في المناطق التي يديرونها. وبعد قليل يجب أن نناقش هذه المشكلة بمفهومها العريض.

كان هدفي أن أخصص أقل زمن ممكن من إجازتي في حضرموت لزيارة مدن رئيسة بينما يقوم رفقائي لشراء احتياجاتنا في شبام وكاحتمال ضعيف لنقوم باندفاع سريع إلى الساحل -لتكملة عبوري من الشمال إلى الجنوب في الجزيرة العربية- بينما تحمل جمال شبوة البطيئة مخزوننا من الغذاء والوقود. . .إلخ إلى ذلك المكان الذي تركنا فيه جمالنا القادمة من نجران لترعى في سلام حتى عودتنا. وبعد الظهر في يومنا الثاني في القطن بدأنا تحركنا إلى شبام تاركين السلطان مع أسرته في منتجعهم الصيفي. وفي هذه الأثناء وصل رجل صغير السن يدعى حسينًا إلى القطن في سيارته وبكرم أصبح مرشدنا للمرحلة القادمة وهو واحد من الإخوان الأربعة لآل عجاج من العاصمة وكان بمعيته شخص معروف مسؤول في خدمة السلطان وقد ركب معي ليخبرني بأسماء الأماكن المختلفة التي نمر بها أثناء المسافة لخمسة عشر ميلاً إلى شبام. وحتى نهاية إقامتي في حضرموت وضع الاثنان أنفسهما تحت خدمتي بدون تحفظ ودون إلحاق ضرر بعملهما الخاص. وأنا أدين لهما بعمق بالمتعة والفائدة التي جنيتها من زيارتي. فهما يعرفان البلاد، سياستها، وكربها وطموحها عن كثب. وكان شعوري بالأسف الوحيد أني لم أستطع أن أجد طريقة لمكافأتهما لكل ما تكبداه عند مغادرتي وأنا أتشوق وأتمنى أن أجد الفرصة لإمتاعهما كما أمتعاني إذ حدث وأن زارا

الحجـاز. وقد أثار اهتمـامي حسين العـجاج لأنه يقظ وحذر ونـشط وذكي مع عدم وجود المجـال الكافي لممارسـة مواهبه فـي الظروف الضيقـة في بلاده. وتتكون ثروة أسرته من ممتلكات في سنغافورة. ومن الطبيعي أن لهم ممتلكات في حضرموت ولكن الثروة دون فرص للعمل نعمة مشكوك فيها.

ليس هناك شيء مميز جداً في المنطقة بين القطن وشبام. وسوف نصل إلى نهاية النحيل فـي الأولى (القطن) قريباً. وانطلـقنا عبر سـهل مكشوف وخالٍ ولـكنه قابل للزراعة معتمداً على هطول الأمطار والسيول من الخليج العميق بالجرف الجنوبي الذي يقع على يمين مسـارنا. وبعد أيام قليلة هطلت أمطار مـحلية وكان هذا السـهل ممتلئاً بالمياه مما يجعل مرور السيـارات خطراً، ويمكن زراعة الدخن هنا كما في نجران وينتج ثلاث مرات في مدة الاثنـي عشر شهراً. وأرض النخـيل في شبام تبدأ بمزرعـة بعيدة وميانـيها صغيـرة تسمى دار الراك في وسط الوادي، حيث لا تزال الحـبوب والبطيخ (الدلاع) تحتل الجزء الأكبر من الأرض والبساتين الكثيفة في خشامر تحت الحافة البارزة للمنحدر الصـخري الجنوبي وقريـته الغنية. وبالقـرب من هذه البقعـة يقع خزان من الحجر مبني بالأسمنت يسمى الموزع أو القاسم (الفاصل) يوقف مرور مياه السيول في قناته المعتـادة ويحوله إلى بستان نخـيل شبام. ولكن بحق الأسـبقية لأهل شـبام فإن بستان خشامر محروم من هذا الماء، إلا عندما يكون حجم السيول كافيًا لتغطية الخزان ويعلو عليه. والخزان ارتفاعـه محدود بالقانون أو العرف -وارتفاعه حـوالي سبعة أو ثمانية أقدام على جانب أعلى الوادي. ورغم أنهم يتلقون بعض المياه من الجبال إلا أن عليهم أن يعـتمدوا على الآبار أيضـاً للاكتفـاء من المياه. وقد قـمنا بزيارة الخزان في الوقت نفسه بعد الظهر، بعد أن نادينا على الشيخ يحـيى بن عبدالحميد بن علي جابر الموطن الأول للقرية التي تبعـد فقط أربعة أميال من شـبام. وتجدر الملاحظة أن هناك جمـاهير كثـيرة تجـمعت في منزله لمساعـدته في الترويح عنا أثناء زيارتـنا التي كانت قصيرة للغاية.

أصبح المبنى الفخم الغريب لشبام واضحاً بصعوبة قبل فترة كبيرة من الحافة الغربية لحزام نخيلها، ولم يكن مثيراً للاهتمام مع أنه يقف عالياً كعملاق على رجلين خشبيتين مرتفعتين على بعد عالٍ من أعالي بساتين النخيل المحيطة. وقارن فان دير مولين هذه البساتين بقطعة كيك مع غطاء سكر زينة أو كيكة شوكلاته عتيقة المظهر في أعلاها غطاء سكر للزينة الأبيض غير منتظم، قد يكون أفضل وصف لها. ومن المؤكد أنها خيبت توقعاتي كثيراً والتي اعتمدت قليلاً على تقارير المسافرين الآخرين الذين من المحتمل أن تكون مباني القصرين العظيمين في الجانب الشرقي (غير واضحة من الغرب) قد سيطرت على انطباعهم. وعند مرورنا فوق حاجز منخفض لكثبان رملية سهلة، التففنا حول حافة مقبرة شاسعة بها حجارة شاهد لضريح، بنية الوجه، منقوشة ومختلفة مع قباب بيضاء وقبور مزخرفة بالجص. وفي الحال أصبحنا في تجاويف مطوّقة عميقاً بسدود تحتوي على بساتين النخيل. وهذه السدود جعلت الطريق خطراً لحركة السيارات، ولم يكن من السهل عبور الأجزاء الضيّقة الملتوية منه. ويكوّن حائط المدينة نوعاً من المنحدر الخفيف حول التل والصخر الذي بنيت عليه المدينة، ويبدو أنه مستمر على امتداد الحيطان الخارجية للمنازل التي كانت تقف شاهقة فوقنا. وبين الحائط وموقعنا تقع بعض بساتين النخيل، مع المسجد الصغير الأبيض المسمى «معروف» في وسطها بجانب الطريق. والطريق نفسه يلتف حول الركن الجنوبي الغربي للمدينة منحدراً في مجرى النهر العريض الرملي الذي تتناثر فيه الآبار التي يحصل منها الناس على الماء المشهور بملوحته. ويحصل المواطنون الأغنياء على الماء من بئر ذات ماء عذب تبعد مسافة بعيدة في وسط الوادي في اتجاه قرية قُرَّة في فم وادي سر. ويمتد من القناة التي نزلنا فيها طريق مرصوف عريض ولكنه شديد الانحدار يقود إلى البوابة الرئيسة والتي تبرز عتبتها من الأرض بقدر يحتم قيادة حذرة جداً. وتوجد بوابة مماثلة مباشرة خلفها، تقود إلى فضاء واسع مكشوف، ملاصقه الرئيسة هي البالوعة الكبيرة الرئيسة للمدينة التي توجد في الوسط. ويوجد مسجد

جميل خلفها مباشرة وكذلك القصران العظيمان البني والأبيض اللذان يتبعان للسلطان شُيّدا على صخرة في الركن الجنوبي الغربي للمدينة. وأطول القصرين والذي يقع قليلاً إلى الخلف من الآخر هو مسكن العائلة. والآخر يحتله السلطان بنفسه ويحتوي على غرفة الاستقبال وغرف السكن... إلخ وعند باب هذا القصر توقفنا وكان خالياً وعملياً بلا أثاث في غياب السلطان، وقد وضع بواسطة السلطان لخدمتي مع مجموعتي. وهو مبنى كبير ومتعرج به أربعة طوابق من الطراز القديم، وليس نظيفاً جداً ويبدو مهملاً وبه تجهيزات صحية عتيقة. وفي الحال جعلنا أنفسنا كما في منازلنا بين طابقيه الأعليين وكان سطحاها يتيحان منظراً عريضاً مبهجاً لأسفل الوادي.

وصلنا الآن الحد الأقصى من رحلتنا. وعليه ولعدم رغبتي في إنفاذ صبر رفقائي أكثر من ذلك قضيت جزءاً من الصباح التالي في توزيع المكافآت المعتادة عليهم، كل منهم حسب رتبته وخدمته. فأولئك الذين حصلوا على مكافأة أقل كانوا غير راضين عن ذلك؛ لأنهم لم يحصلوا كالآخرين، ولكن الرضى الواضح على وجه أولئك الأعلى درجة أثبت أني قد كنت كريماً. وكان كل ذلك للفائدة ووضعت بعد ذلك خططي للمستقبل. وفي الأيام القليلة القادمة سيشرف سعد بن ناصر على شراء إمداداتنا الضرورية بينما سأندفع لوحدي لقضاء ليلتين على الأكثر بسيئون وتريم وكل ذلك كان حسناً. وعند عودتي فإن الجمال التي تحمل الأمتعة سوف تسير إلى شبوة ومعظم مجموعتي يمكنها الذهاب معهم تاركين عدداً قليلاً من الآخرين وأنا لنأتي بالسيارات. وسوف أذهب بمفردي إلى أسفل إلى الساحل على ظهر حمار وأعود دون تأخير. أما مجموعة الأمتعة فقد لا تصل إلى شبوة قبل أن نلحق بهم بالسيارة وهذا الاقتراح كان مختلفاً؛ ولذا قد أعلنت حالة من التمرد في الحال. ربما قد أشرت إلى هذا الاحتمال في حديث عرضي ومن غير شك فقد فكروا في هذا الأمر ورفضوه وجاء ردهم على شفاه الممثلين لهم من البدو. والملاحظ أنه كلما كنت معهم فهم لا يهتمون كثيراً بما أعمل أو إلى أين ذهبت، ولكن إذا تركتهم في موقف

محرج فإنهم كذلك سيتركونني في موقف مماثل. وهم جميعاً لهم أسرهم ويودون أن يعودوا إليها. هذا حسم الأمر، إضافة إلى أني قد أُثنيت عن رحلة الساحل بشروط أصحاب الحمير الباهظة وهي ٣٥ ريالاً لكل حمار إلى المكلا وعائداً منها، و ٢٢ ريالاً للجمل الذي يحمل الأمتعة، بينما جمالنا من نجران إلى شبوة وعودة إلى نجران تكلف ١٥ ريالاً فقط لكل جمل، وعليه أعلنت التخلي عن الخطة. وبعمل ذلك فقد تخليت عن فرصة لتسجيل إنجاز جديد وهو عبور الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب، من ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي تركته في نوفمبر إلى المحيط الهندي.

بالتأكيد ليس لي سبب آخر للذهاب إلى الساحل، والعمل البطولي سيصبح - لو قمت به - أهم بقليل من حب الاستطلاع للاستكشافات وهذا هو الدافع أنه في كل التاريخ لم يسجل أن هنالك إنسانًا قد عبر الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس وقد يكون من المحتمل أنه لم يقم بذلك أي إنسان فعلاً. بالتأكيد لا يوجد أي سبب واضح يدفع أي شخص إلى محاولة القيام بهذه الرحلة باستثناء القيام بها عن طريق الجو في المستقبل. على كل قاومت الإغراء الطفيف للإصرار على هذا الأمر وحسم كل الأمر باقتناع عن طريق قرار متفق عليه أن نبدأ رحلتنا من شبام بأقل تأخير ممكن. وبعد عودتي من سيئون وتريم سوف يقومون بتجهيز كل شيء للرحلة وحينها أقضي وقتي مستمتعاً.

تجولت في هذا الأثناء في الخارج مع حسين لأرى المدينة. وحدّدت أبعادها الأفقية بواسطة مساحة قاعدة العمود الذي تقف عليه. ونلحظ أنها قد نمت رأسياً في محاولة نبيلة من سكانها للتغلب على هذا العائق الطبيعي. ونتج عن هذا المجهود سلالة من البنائين الذين من المؤكد أنهم يعرفون شيئاً عن فن البناء بالطين. وتجدر الإشارة إلى أن شبام هي الوحيدة من مستوطنات حضرموت التي تتكون كل مبانيها تقريباً من خمسة أو ستة طوابق، لا أظن أن أياً منها به سبعة طوابق ولكني لا أستطيع

أن أجزم بذلك. ومستوى السقف في المدينة تقريباً منتظم كانتظام السطح الذي نهض وارتفع منه. ولإعطاء الطين قوة ضد التحلل عن طريق الأمطار فإن كل سطوح السقف المسطحة وحواجز السقف قد طليت بجبس صلب متماسك وأملس كالإسمنت الجيد.

وبشكل عام فالقصران مطليان جزئياً باللون الأبيض لتعطي تأثيراً لونياً أخاذاً ولكن هنالك أسباب اقتصادية عاقت استخدام الجبس على الجدران العمودية. وعندما تصبح شبام مدينة ثرية حقيقة لابد من تصحيح هذا النقص؛ وذلك لأن الخلفية التي تعطيها بساتين النخيل الخضراء الغامضة مع المنحدر الصخري ذي اللون البني المتجهم فإن المدينة ستقف كقصر في أرض خيالية ساحرة إذا ما ألبست لوناً أبيض. والمباني الوحيدة ذوات الطابق الواحد هي المساجد وبعضها له مميزات كبيرة مع بساطتها، بينما المسجد الرئيس الذي يعرف بمسجد هارون والذي يزعم بأن بناءه يرجع إلى أيام الخلافة العباسية[1] أما المباني الحالية فهي بالتأكيد لا ترجع إلى ذلك العهد ولكن قد يكون المسجد ممثلاً لنفس الموقع منذ عهد سحيق. وهنالك تقدير محلي يعطي مباني الطين عمراً قدره ٢٠٠ سنة تقريباً ويبدو أن ذلك التاريخ تقريباً أقصى حد يمكن أن تبلغه الذاكرة محلياً. ومن ثم لسكن وحياة الإنسان منذ الأزمان الأولى وتسبح المدينة في عوكبة من الأسماء البديلة.

مع تحكم القعيطي في الميناءين البحريين المكلا والشحر فإن شبام هي العاصمة التجارية لحضرموت وعدد من مواطنيها تجار لهم مكانة معروفة. وهم ينجزون كل أعمالهم في منازلهم الخاصة، حيث تستخدم غرف أرضية واسعة ولكن متسخة كمخازن، بينما المكاتب تحتل مستوى أعلى. وترك السوق كلياً لأصحاب المحلات

(١) تذكر المصادر الحضرمية أن عمارة هذا المسجد سنة ٢١٥هـ وربما قبل ذلك، وقد حقق المؤرخ عبدالرحمن بن عبدالله السقاف عمارة هذا المسجد، انظر مجلة العرب، ج٧، ٨ سنة٢٩، محرم وصفر، سنة ١٤١٥هـ، ص٥٢٢. (المراجعون).

التجارية الصغيرة، ويتكون من طريق رئيس مع عدد من الطرقات الفرعية الصغيرة الوضيعة، وفضاء صغير مكشوف يستعمل قنوات التصريف المفتوحة الأشد اتساخاً مما يزيد الانطباع العام بعدم العناية التي تمتد إلى كل شوارع المدينة. والاهتمام بالصحة والنظافة يبدو أنه لا يثير اهتمام مواطني المدينة. والمخاطر التي يتعرض لها الشخص عند مروره في شوارع المدينة بين المنازل المرتفعة تحتاج إلى قلم «جوفينال» لكي يصفها وصفاً كاملاً. وقد يكفي أن نقول: إن كل شارع به مجرى (قناة) تصريف مفتوح. يجري هذا المجرى إلى وسط الشارع إلى بالوعة مغطاة جزئياً أو كلياً والتي لا أعلم إلى أين تقود. ويحدث التصريف من المنازل إلى الخارج ومن ثم إلى داخل هذه القنوات عن طريق الهبوط من أعلى منتهياً في منخفض والذي يخرج الأوساخ إلى أسفل كتف أسمنتي في مستوى الأرض. والغرض من ذلك هو حماية الأساس الحقيقي للمنازل من التلوث ثانية بواسطة التصريف العائد، وينثر الأخير في اتجاه تصريف الشارع. فإذا حدث أن مررت على نقطة كهذه عند لحظة ترسيب التصريف المنزلي، فمن الأفضل أن تمر أبعد ما يمكن في الجانب الأقصى. ومما ذكر حتى الآن يوضح أن التجهيزات الصحية في شبام تحتاج لجهد كبير لتطويرها. ولحسن الحظ فهي تعد المدينة الوحيدة في حضرموت التي يخالف نظامها الصحي كل مبادئ الصحة العامة والنظافة.

من الطبيعي أن يفضل الأغنياء من المواطنين تشييد قصورهم في أطراف المدينة دائماً حيث يسير تصريف المنازل في اتجاه بساتين النخيل في الأسفل. فمنزل عائلة عجاج والمنظر الذي يطل عليه المنزل في اتجاه الشمال عبر بساتين النخيل في الأسفل والوادي المفتوح في الخلف يستحق أن يشار إليه. والمدخل الرئيس لهذا المنزل يتجه إلى الداخل إلى المدينة حيث يقابل فضاء ضيقاً ولكنه مكشوف ونظيف بينما أثاثه الداخلي ونظامه لا يضاهيه شيء آخر. إنه من المستغرب أن تتحمل أسر متندرة مثل هذه القذارة والأوساخ بمدينتهم ولكن في اعتقادهم أن المصلحة العامة للمدينة من اختصاص الحكومة. وظاهرة عدم المبالاة في الجزء القعيطي من الوادي واضحة خلافاً

للسلوك الأكثر تطوراً الموجود خلف حدوده. ويجب أن نعترف إنصافاً لأهل شبام أن مساعمتهم في التطور في هذا الوقت تتركز على ضواحي الحديقة وفي الساحل عند الجانب الآخر من الوادي تحت ظل الجرف. وفي هذه الأرض نما عدد كبير من المساكن ذات الطابق الواحد الجذابة والمطلية بالجبس الأبيض، كل منها في داخل بستان نخيل أو أشجار فاكهة حيث تقضي عوائل العاصمة الثرية جزءاً كبيراً من فصل الصيف بها. وبعض هذه المساكن تتميز بالترف والبذخ بوجود حوض سباحة وهناك واحد منها تملكه عائلة آل عجاج محجوز كلياً لسكن الزوار الأوربيين تقريباً.

سكنت في ذلك المنزل فريا ستارك في عام ١٩٣٥م خلال مرضها الخطير والذي تطور بصورة مزعجة، وفقاً لما ذكره السلطان علي، وعزى ذلك كثيراً لرفض المريضة اتباع قوانين التغذية أو الوجبة المحلية وإصرارها على الاستحمام المتكرر. وسكن الكولونيل بوسكوين في هذا المسكن مراراً كما كان أيضاً في متناول يد كل زوار الوادي من قوات الطيران الملكية وحتى عند زيارتي كان يسكن فيه شاب إنجليزي جذبه إلى هذا المكان إغراء سبأ وشبوة، وقد وصل قبل أربعة أو خمسة أيام عن طريق وادي دوعن من الساحل واسمه نورمان بيرن وقد ذكر من قبل في باب متقدم. وخلال فترة بقائي في شبام رأيته في مناسبات عدة وأشركته معي في وجبة من الأكل المعلب دون أن أغير إيماني الراسخ أنه في هذه الحالات يجب أن تعيش حياة ريفية، أي تأكل ما يأكله أهل المنطقة. وفيما يبدو أنه قد مر بتجربة غير حسنة عند تناول الطعام العربي في لطريق وقد تحدث عنه دون حماس وحتى ملابسه الأوربية لم يتخلص منها حتى الآن مع أنه قام بذلك متبعاً لنصيحة محلية قبل رحيله إلى شبوة، والشيء الأشد غرابة أنه اعترف بجهله التام عملياً باللغة العربية والذي عوضه بعض الشيء عن طريق استخدام مترجم من الخدم في عدن.

كان عليّ أن أستسلم إلى نوع من التسلية على غير المتوقع في مساء اليوم الذي وصلنا فيه وذلك عندما كنت أجهز لتسلية أصدقائي بموسيقى من الراديو من مصر

والقدس. وأرسل لي شاعر محلي يدعى علي بن عوض بن حمد بانعيمان رسالة طالباً الإذن لزيارتي وقد أذنت له في الحال فتقدم وألقى علينا قصيدة مدح وترحيب ممجداً فضائل ابن سعود. ومن المحتمل أن يكون قد أشعر سلطات عدن بالصدمة وذلك لأنه يشير بوضوح إلى اتجاه خفي في الأفكار المحلية، الذي لم يكن غائباً أبداً صراحة عن النقاش العرضي في هذه الأيام. وهنالك بلا شك حركة تململ وضجر تحت الخفاء في حضرموت والتي يبحثون عن علاج لها، وعليه فإنه من الطبيعي أن يفكروا في ابن سعود كمنقذ لهم من مشاكلهم. وبعض الشجعان يطالبون بتدخله وآخرون أكثر جبناً يتعجبون بصوت عالٍ كيف يستطيع هو مساعدتهم. أجبت أنا عليهم بثبات أن ابن سعود لا رغبة له تحت أي ظرف في ضم المنطقة تحت مسؤليته أو أن يتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية المجاورة له. واستشهدت بالتسوية مع اليمن على صدق ذلك واقترحت عليهم أن بمقدورهم تبني النموذج السعودي في السلام والأمن ويجعلونه ملائماً لاحتياج ظرفهم الخاص.

قضيت ثلاث ليالٍ في شبام في هذه المناسبة الأولى. وفي ظهر اليوم الثالث نُظمت لي رحلة إلى قرية بابكر الكثيرية وذلك استجابة للدعوة الملحة من مواطنها الأول نسيب بن علي بن عبدات. وقد كان في رفقتي حسين ومعروف. وقدنا سيارتنا على طول حافة ضواحي حديقة الساحل عابرين مجرى الوادي الرئيس، ثم مررنا بمنطقة واسعة من النخيل الصغير تسمى السبخة. وتقع قرية الحزم قليلاً إلى جهة اليمين في مقابلة ميلان المنحدر الصخري وهي متناثرة في غير نظام (زرتها في مناسبة لاحقة). وهذه القرية تبدو كجزيرة مستقلة تتبع لعدة أسر من السادة بالقرب من الحدود الشرقية لمنطقة القعيطي، والتي تحاط هنا بواسطة قناة السيول الرملية العريضة التابعة لوادي ابن علي حيث تخرج من مدخلها العظيم إلى الجنوب قليلاً من خلال

بساتين كثيفة وغنية يتخللها عدد من القصور الجميلة والقرى الصغيرة. ويمتد الخط الحدودي لمنطقة القعيطي عبر الوادي الرئيس إلى فم وادي جعيمة -قادم من الهضبة الشمالية-، ولكن تستثنى من ذلك القرارة وواحدة أو اثنين من قرى الكثيري. وبعبورنا قناة وادي ابن علي مررنا عبر بساتين نخيل الحوطة التي تتبعثر منازلها من غير نظام في خط طويل حول منحدر لجرف عالٍ، محددة مدخل الرافد إلى داخل وادي حضرموت الرئيس. ونحن الآن في منطقة الكثيري.

وتحتل سلسلة متعاقبة من قرى صغيرة مع حقولها وبساتينها مساحة كبيرة على يسارنا من الوادي، ياب، وقريو وباليت، أوصلتنا إلى مستوطنة بابكر وهي المكان الذي نقصده وهي ذات حجم معقول وتبعد حوالي ستة أميال من شبام. وجمع مضيفنا هنا مجموعة كبيرة من زملائه من القرية للاقاتي، ومرة ثانية ظهر الاهتمام الكبير بالتفاصيل التي تخص طريق السيارة الذي أصبح الآن مشهوراً، وقد عبروا عن أملهم في أن هذا الاتصال الذي أعيد وضع الأسس له سوف يجعل ابن سعود قادراً على مساعدة أهل حضرموت عديمي الحظ، ليحققوا السلام والأمن الذي يرغبونه جميعاً. ولكن إذا تركوا وحدهم فإنه ليس لهم أمل في تسوية مشاكلهم وذلك لطغيانهم وغيرتهم وتقديرهم الضيق. والمظالم المحدودة لعشيرة الكثيري ستناقش قريباً. ولكن فيما يبدو لي أن عائلة ابن عبدات اهتمامها بالتعصب وكبرياء العشيرة أقل من الاهتمام بالسلام الذي ينشدونه بأي تكلفة عن طريق أي شخص. فالسلام هو الهدية التي يطلبونها من حكوماتهم، بينما تعدد الحكومات هو العائق الواضح للسلام، ولقد أكرمونا بالشاي مع التمر وشرائح الأناناس المعلبة وكمثرى كليفرنيا . . . إلخ ثم عدنا من الطريق نفسه إلى شبام قبيل غروب الشمس.

عند وصولنا وجدنا أن السلطان عليًا قد عاد إلى عاصمته واستقر في منزل نائب الحاكم المقابل للقصر. وكنت مسافراً الصباح التالي لزيارة سيئون وتريم. رُتب الأمر

بحيث إنه يجب أن تنتقل مجموعتي إلى جناح آخر من القصر بينما الشقق والغرف التي كنا بها يجب أن تحجز لاستخدام السلطان. وفي هذه الأثناء شاركنا السلطان بعد العشاء الاستماع للراديو والذي كان مثمراً جداً وقضينا أمسية جميلة في المناقشة في كل المواضيع. ولقد جاء السلطان إلى شبام للبقاء لعدة أيام لإنجاز بعض الأعمال المحلية وغيرها من الأعمال ومن المتوقع أن أجده هنا عند عودتي. ولكنه لم يوافق على اقتراحي بأن نرحل نحن إلى معسكر خارجي ليتمكن هو من استخدام القصر. تظهر سيئون بصعوبة في يوم صاف وتبعد حوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر ميلاً من شبام، وطريقنا حتى بابكر كان مشابهاً للذي وصفته من قبل. وبعد مرورنا على تلك القرية مباشرة دخلنا منطقة أخرى من المناطق الخطرة في الوادي وهي القرية ذات الجدران الكبيرة، قرية الغرفة -تبعد أقل من ميل من بابكر- التي كانت في حرب مع القرية التالية، قرية «أهل فاس»، حوالي نصف ميل إلى الخلف، حتى وقت قريب عندما تم تدبير عقد هدنة. وكانت الأمور تبدو هادئة وآمنة ولكن آثار إطلاق الأعيرة النارية تلاحظ حتى في المساجد والأضرحة والأبراج المحطمة جزئياً مما يعكس محنة القرية. ولا نحتاج أن نذكر أن القريتين تتبعان إلى عشائر بني عمومة وهم آل عامر وأهل عمرو من قبيلة آل كثيري. وعداوتهم مزمنة مع أنه تتخللها فترات هدنة ترتب بواسطة السلطان أو صناع السلام الآخرين. وهذا وضع مثالي لحل مشكلة روعيت وجولييت باستثناء أن جوليتات المحلية (الفتيات) نادراً ما يمكن أن تراهن في الخارج بعد عمر تسع أو عشر سنوات عند ذهابهن إلى زيارة بساتين النخيل المحفوفة بالمخاطر فدائماً ما يصطحبهن عبد أو قريب حاملاً معه بندقية مع حزام مليء بالطلقات حول وسطه.

خلف قرية آل فاس، يدخل الرافد العريض لوادي سر إلى الوادي من جهة الجنوب مع وجود قرى عديدة عند مدخله، أيضاً المهري الصغيرة ثم المستوطنة الكبيرة تريس التي نظر إليها حسين بشوق وهو يعترف بخجل أنه تزوج مرة ثانية حديثاً من

فتاة من هذه القرية من المشايخ المحليين. وبعد الزواج ترك عروسته لتعيش مع والديها لفترة ولكن يرغب في أن يأتي بها إلى شبام في المستقبل القريب لتشارك زوجته الأولى في السكن في بيته البلاطي الفخم. وتؤدي المرأة دوراً ثانوياً في الأحاديث العادية في حضرموت وعزلها في منزلها يظهر أنه عزلٌ تماماً، وأكثر تشدداً من نجد والحجاز. وقد أثار اهتمامي غرابة تطور هذا الجنس الذي يكون رجاله معتادين ومطعين على الحياة الأوروبية في جاوة وسنغافورة، والنساء اعتدن على طرق الراحة الميكانيكية لحضارة الغرب وإن لم يكن ذلك فإنهن معتادات على تقاليد الغرب الاجتماعية. وحسب علمي فأنا لم أر أي امرأة من الطبقة العليا خلال فترة بقائي في حضرموت. وقد لفت نظري أن النساء البسيطات والفلاحات ونساء الطبقة العاملة عامة من الصعب تميزهن من ناحية الزي عن نساء الطبقة العليا في وسط الجزيرة العربية. فإنهن يلبسن الثوب الفضفاض نفسه الذي يجر على الأرض ومحجبات بالخمار كلياً، ومن المحتمل أن الفرق الوحيد الذي يمكن ملاحظته هو أن ثيابهن مشرقة ومفعمة بالحيوية وبلونها الأزرق الغامق وتكرار الأزياء ذات اللون الأخضر القاتم أو المغري الأصفر.

وأزياء الرجال، خلافاً لذلك، تبدو كما لو أنها ليست عربية كلياً، ومع ذلك يمكن أن تعد أنها وسط بين الملابس الفخمة لسكان الأراضي العالية في حضرموت التي تتكون من إزار ولا شيء آخر ما عدا أحزمة حول الخصر. والزي الجاوي الذي قد يكون تطويراً لزي حضرموت يتكوّن في الأساس من إزار وصديرية خفيفة وبدلة بزرار خفيف للجزء الأعلى من الجسم. وأكثر العناصر سحراً عند سكان حضرموت هو جمال البنات في سن الطفولة. حتى في عمر التاسعة والعاشرة فإنهن يظهرن متجولات بلا قيود، وقد رأيت أكثرهن شجاعة تجري خلف السيارة وهو اللهو المفضل لأخواتهن الأقل جاذبية منهن واللاتي فيما يبدو أنهن لا يجدْن أي صعوبة في أن يجعلن من أنفسهن مصدر إزعاج بغيض خاصة للغرباء في داخل أسوارهم. والنظر

إلى البنات يدخل السرور إلى النفس وهن عامة يظهرن بعض الجبن والهدوء ـلكن يملؤهن حب الاستطلاع. وهن جميلات كحديقة أزهار ويلبسن ثياباً بها رسومات لأزهار ومصنوعة من الحرير الياباني، الإزار طويل يجر في الغبار والأوساخ ـلكنه مفتوح من الأمام إلى أسفل قليلاً من الركبة حتى لا يعيق الحركة وبه عنق مربع عريض يرسل انزلاقاً مع كل انثناءة في الجسم على الأكتاف الساحرة الرقيقة البناء. وأيديهن وأقدامهن جميلة وشعرهن الأسود طليق أو مضفور وعادي دائماً. وهن عدة ما يتجولن في مجموعات تتكوّن من ست أو أكثر وهذا التنوع الكبير في ألوان ملاسهن يعطي تأثيراً كاملاً أو ببساطة يعطي الانطباع الذي يعطيه حوض من الزهور الجميلة. إنهن حتى الآن يشكّلن المظهر الوحيد الأكثر إثارة وبهجة في الأرض التي يحببن حتى تجبرهن التقاليد على الانسحاب والتواري من نظرات العامة إلى عالم المرأة.

على الضفة اليمنى لمصب سر تقع القرية الصغيرة ثوم والتي تندمج بساتين نخيلها في حافة واحة سيئون العظيمة. ودخلنا المدينة نفسها عن طريق بوابة متوضعة في حائطها الغربي، حيث طرقاتها الضيقة الملتوية لم تصمم لحركة السيارات. كما توجد جمهرة من الأولاد الصغار تجعل التقدم فيها بطيئاً. خرجنا في الحال إلى فضاء واسع في الجانب الشرقي من المدينة حيث يوجد قصر السلطان العظيم -حسب تقديري فهو المظهر المعماري الرئيس لحضرموت- توجد أبراج فوق السوق لم يكتمل تشييدها بعد وقد صممت وشيدت بواسطة شركة سيد أبوبكر بن حسين بن الشيخ ك كاف، الثاني من خمسة إخوان من العشيرة القيادية لعائلة آل الكاف العظيمة. ويقف قصر سلطان تريم بالقرب من قصر السلطان نفسه وينافسه تقريباً، بينما بعيداً في اتجاه الشرق تمتد الواحات الشاسعة التي تنتشر في بساتين نخيلها المنازل الصيفية البيضاء للأثرياء من المواطنين والذين عادة ما يقضون الخريف أو موسم التمر كما يقولون في الصحراء والتي يقصدون بها بساتين النخيل. ويجري حائط المدينة بعيداً في شكل دائري ليحيط بمساحة كبيرة لهذه البساتين والمدينة نفسها، بينما نمت خلفه حديقة كبيرة

في الضاحية تسمى القرن بها العـديد من المساكن ذات الطابق الواحد والمنازل الصيفية والقنادق.

عند توقفنا في باب الـقصر كان السلطـان في مسكنه الصيـفي على بعد نصف ميل ومن ثم ذهبنا إلى هناك فقط لنكـتشف أنه كان يقضي اليوم في فيـلا تتبع لأخيه جعفـر، ووجدناه هناك بمعيتـه مجموعـة معتادة من أفـراد العائلة تتكون من اثنين من أبنائه -حسين وآخر نسيت اسمه- وأخويه الاثنين حسين وأحمد. وتعرفت مؤخراً في اليوم نفسه على محمد من فرع العـائلة بتريم والذي يحتل القصر الثاني الذي ذكر من قبل ويحكم أخـوه عبدالله مـنطقة تريم. وجلسنا نتحـدث بحرية أثناء شـربنا للشاي وتدخيننا للتبغ في غرفة استقبال حسين وهي قاعة ذات حجم معقول وحيطانها مطلية بزخارف الجبس الرقيقة. وقام حسين بأداء فريضة الحج قبل سنوات قلائل -أعتقد في عام ١٩٣١م- مع أبيه منصور الذي توفي في عرفات. والإخوان الثلاثة جميعهم الآن متحمسون لاحتمال ذهابهـم إلى الحج عن طريق السيارة كما أن لهم مطالبهم الخاصة التي يعتزمون أن يشغلوا بها مكاتب ملك العرب[1].

قدم طعام الغداء وكـان لذيذاً جداً، تبعاً لموضة "جسـتافيل الجاوية"، كل نوع من الطعـام طهي إلى حد الكمـال، وقدم صـحن أو اثنان من البـاباي الحلو المذاق، والأكثر عجـباً هو تقديم المياه المثلجة والتي من شدة برودتها كـان من الصعب أن تشربها إلاّ على رشفات. ودون أن ندرك، فـإننا عبرنا حقلاً ثقـافياً وسياسـياً جديداً. ودون أدنى شك فإن شبام هي المركز التجاري لحضرموت مع أن سوقها أقل جاذبية بكثير من سوق سـيئـون. وهو كذلك أكـثر تخلفاً كـما هو جلي من إهـماله للراحة والـنظافة والزينة. وفي سيئون دخلنا منطقـة نبلاء إقطاعيين يعيشون حيـاة سهلة مريحة -ولكن لبعض الأسباب السـياسية لم يكونوا سعداء- يمتلكون مـتع الحياة ويستمتعـون بترفها

(١) أي الملك عبدالعزيز -رحمه الله- (المراجعون).

البسيط. وفي الظاهر أنهم أغنى من منافسيهم القعيطيين وبكل المقاييس أكثر إسرافاً في صرفهم. والمضخات التي تدار بواسطة الماكينة هنا عددها أكثر من الغرب البعيد، فمعظم المساكن بها أحواض سباحة يستعمل الفائض من مائها في ري الحدائق الصغيرة المزروعة بتنوّع عظيم من أشجار الفاكهة، السيارات أكثر عدداً، والإضاءة بالكهرباء بدأت تدريجياً، وأسلوب الطهي متقن ولكن قمة الترف هي الماء المثلج ووجود أقل من ستة من التلفونات التي تهيئ الاتصال بين المنازل الأكثر أهمية. ولكن فوق الجميع فإن سيئون -مع كل الشعر الذي قيل عن تريم- هي البقعة الأكثر جمالاً في حضرموت.

فُضِّلَ المشهد الذي يمكن رؤيته من قصر السلطان على كل المشاهد الأخرى باستحقاق بواسطة فان دير مولين. وبالتأكيد فإن رؤيته تبهج النفس. تريم هي مركز حضرموت الروحي والثقافي. والعنصر المسيطر هو العدد الكبير من سكان المدن في الوادي وهم عائلة علوي سعيد من آل كاف استوطنت هنا معظم ألف سنة الماضية، منذ حركة القرامطة في القرن العاشر والحادي عشر والتي جلبت إلى هذه المدينة من البصرة جد العشيرة سيد أحمد بن عيسى المهاجر العلوي والذي تظهر قبته حتى الآن في هضبة على بعد خمسة أميال من سيئون. وعلى ما هم فيه فإنهم يتمتعون بقدر كبير من التقديس في وسط العداء الدنيوي من قبل جيرانهم. والبدو لا يتحرشون بهم ولكن من الخطأ أن نظن أنهم يعيشون في جنة منزوعة السلاح. فبينهم -كما في كل مكان- آخر علامات العشيرة المعروفة.

ولكل عشيرة -بالطبع- أتباعها، والحرب الأهلية بين الأسياد عندما تنشب تشمل -بالطبع- أتباعهم. وبعيداً عن هذا فإن الفضل الكبير الذي تقوم به عائلة آل الكاف هو الدور المميّز الذي تؤديه الآن في طليعة التقدم، وكقواد لحركة الحضارة والتطور. وتفقد الطبقات الدينية؟ عادة الكثير من سلطانها بتعليم وتثقيف الشعب ولكن عائلة الكاف لا تبحث أو ترغب في أي نوع من السلطة المؤقتة وقد استفادو

عن طريق اتصالهم بجاوة وسنغافورة وجلبوا إلى أوطانهم الكثير من التقدم. وسارت جهودهم في ذلك ببطء ولكن بتأكيد لنشر ذلك التطور. وكل التكاليف التي صرفت على العملية تحملتها المخصصات الخاصة بأسياد الكاف. وإنهم بالتأكيد وضعوا نموذجاً نبيلاً في وسط ظروف غير مشجعة، ولكن التاريخ لن ينسى أنه في زمن ما رممت عائلة مميزة الصدع الذي فشل حكام الأرض أن يقفوا في وجهه وهو انقضاض اليأس والفوضى.

يجب أن أختصر تجربتي الأولى في سيئون، وبما أن برنامجنا المحدد يشمل وصولنا إلى تريم عند غروب الشمس. وبعد وجبة الغداء انتقلنا إلى الفيلا الخاصة بالسلطان علي. وعند وصولنا كنت مستغرباً أن أرى منظر حطام. فالحائط الجنوبي لمجموعة المنازل المنتشرة وجزء كبير من قاعدة العمود المربعة النظيفة البيضاء للمسكن الأرضي وبعض الغرف الأمامية قد دمرت قبل أسبوعين بواسطة سيل رهيب من وادي فغمة الرافد من الهضبة الجنوبية والذي يشارك وادي سر -الذي ذكر من قبل- في المحافظة على واحات سيئون حية ويانعة. وقد يبدو أن السلطان قد بنى قصره الصيفي في قناة السيل في الوادي وكأنه يبحث عن المشاكل. ولكن الحقيقة هي أن السيول الكبيرة في أودية حضرموت ليس لها حدود أو قيود وقد تكون قاسية مع أي شيء في طريقها. فحيطان الخندق العظيم التي لا تخترق تبتعد عن بعضها بما يكفي مما يجعلها تتحمل أهوال السيل الجارف. وباستثناء المنطقة المحطمة فإن المسكن ذا الطابق الواحد ساحر في عموميته، وبه حوض سباحة كبير وهو الآن خالٍ، وفي الوسط ردهة واسعة مفتوحة صالحة لجلسة المساء. ويوجد عدد من الغرف المريحة المفروشة جيداً بالأبسطة في الجزء الشمالي للاستعمال أثناء اليوم وتوجد حمامات كاملة التجهيز ونظيفة للغاية. وهناك فناء حديقة صغير مليء بترف بأشجار الباباي والموز. وبينما تعانق أشجار النخيل المحيطة خارج سور الردهة والذي تتعلق في أعلاه شجرة أكاسيا ذات أزهار بيضاء ساحرة في وقت إزهارها الكلي. والمطلوب الآن هو قسط قليل من

الراحة مع وجبة خفيفة من التمر والفاكهة المعلبة والبسكويت قبل أن نغادر لمواصلة رحلتنا مع الوعد بقضاء الليلة التالية هنا كضيوف للسلطان.

مررنا بعد نصف ميل من هذه البقعة عبر البوابة الشرقية لحائط المدينة إلى نخيل القرن ومنطقة الفيلا والتي بدا خلفها بعد ميل واحد حزام واسع لأشجار نخيل مزروعة حديثاً معتمداً كلياً على الري بالسيول. وتعرف هذه باسم حمى سيئون -أو محمية الرعي- التي تحدد حدودها البعيدة بعد المرور على القرية المدمرة، قرية حصن الحوارث، في حافتها على اليمين، نهاية واحة سيئون. وتمتد واحة سيئون شرقاً وغرباً حوالي خمسة أميال طولاً بينما عرضها على طول خط وادي فغمة إلى داخل الوادي الرئيس قد يبلغ ثلاثة أميال. وتقع على حدودها الشرقية مع طريق العربات المتعرج خلال مقبرة غير نظيفة في طرفها القرية المتسخة مريَمَة التي تطغى عليها هضبة منخفضة من الحجر الجيري والتي تحتفظ جوانبها وقمتها ببقايا جدران قديمة ومان وقد ذكر أن هذه الأطلال قديمة جداً ولكن مع ذلك ودون فحص دقيق، أعتقد أن موقعاً مثل هذا لابد من أن الإنسان استوطنه لفترة طويلة وبالتالي مبانيه القديمة لابد أن تكون قد استهلكت وذلك نتيجة لاستخدامها كمواد بناء في تشييد المباني اللاحقة. ويبدو أن هناك العديد من الروابي المتشابهة التي تقع بعد فواصل جبلية قصيرة من مريَمَة، عبارة عن شظايا كبيرة من الجروف الصخرية تساقطت حرة في الوادي وتشكلت مع الزمن، كانت قد احتلت بواسطة محاربين. وتعد حالة الخراب الكاملة للقسم الشرقي مريَمَة نفسها خلف الهضبة دليل على إقطاع قديم استوطن بصعوبة في هذه المنطقة. وأصبحت البلاد غير قابلة للسكن من هنا حتى قرية آل باعلوي (علوي) -حوالي أربعة أميال-، كما يبدو، لسبب ما. وقريتاها الصغيرتان حوطة سلطانة - التي يملكها مشايخ عشيرة الزبدة- وقارة العرفضاء على هضبة منخفضة- معظمها محطم والأرض التي حولها غير مزروعة، على الرغم من وجود منطقة من النخيل على شمال الوادي تسمى مثاوير البوع.

دخلنا بعد حوالي ميلين ونصف من مريَمَة إلى مستوطنة تاربة الكبيرة والتي يبدو عليها الرخاء. وتتكون من مساحة كبيرة من النخيل على الضفة اليمنى من الوادي الجانبي بتاربة حتى اتحاده مع الوادي الرئيس، وثلاث أو أربع قرى كبيرة على جانبي القناة نفسها كما أن هنالك العديد من المنازل المعزولة كبيرة الحجم. وذكر هانز هلفريتز عند قضاء ليلة في قرية تاربة المحصنة أنه باستثناء الحقيقة هنا أو في أي مكان آخر في حضرموت خارج المدن المحاطة بالجدران والمنازل التي تتشكل كحصن فإنه من الصعب أن تجد في كل الوادي مستوطنة أقل في المظهر العسكري من هذه. وهي ليست محصنة بالمعنى المعروف لهذا المصطلح. وهي تقع في الحد الغربي لمنطقة خطر أخرى بل المنطقة الأكثر خطورة حتى الآن. وهنالك هدنة مستمرة منذ مدة طويلة بين تاربة وتريم والوادي مفتوح للحركة لمسافة ثمانية أميال من طريق السيارات. والمنطقة التي تتخلل ذلك يحتلها العدو والذي يمتد جسمه الرئيس -قسم آل جابر من آل كثير- ليشمل كل الطرف إلى أعلى وادي عدم على طول التقائه مع الوادي الرئيس والذي ينحرف هنا انحرافاً حاداً باتجاه الشمال إلى تريم نفسها ومن ثم يأخذ مجراه الشرقي. وعلى طول طريق السيارات أو بالقرب منه توجد قرى الأعداء الريضة وكذلك السويري والغرف. ولاستبعاد احتمال الحرب قامت عائلة آل الكاف ذات العقلية التجارية ببناء طريق سيارات محفوف بالمخاطر فوق وعبر المنحدر العظيم الذي يفصل بين تريم وتاربة. ويسير هذا الطريق بالتأكيد بجانب المنطقة العدوانية ويختصر المسافة بين المستوطنتين كثيراً، ولكني جد مسرور لأن الهدنة الحالية تجنبت الإشارة إلى ضرورة اختبار هذا الطريق الجديد وذلك لخطورة صعوده وهبوطه. وقد يساعد الطريق في الهدنة ولكنه في هذا الوقت يحتاج إلى إصلاح وذلك نسبة للإهمال الطويل والأمطار الحديثة.

يعد وادي عدم الذي علينا الآن أن نتغلب على دلتاه القاسية أحد أهم الروافد الحقيقية لوادي حضرموت بالمقارنة مع وادي ابن علي والثلاثي الذي يكون الوادي الرئيس لحضرموت يبقى كمجرى نهر على طول الطريق من خلف هين إلى البحر في

فترات تحـدد بوجود مناطق مستنقـعات وأحواض محاطة بالقـصب. ولكنه يصبح هنا عند اندماج وادي عدم رافـداً شبه دائم تحت اسم المسيلة ويحـمل الماء إلى أسفل نحو البحر. ويعـبر الطريق هذا النهر ومنه يمتد إلى مـسافة ميل تقريبـاً على امتداد سلسلة صخرية لتجـنب تلال الرمال وأكوام الطمي التي تعترض الوادي. وفي النهايـة البعيدة للطريق الذي قـد اتسع، نزلنا إلى سطح مـتـموج من الطمي والصـخـر مكوناً الفم الواسع لوادي بثي الذي يأتي إلى أسفل عـبر السهل الشاسع باتجـاه حوض تريم الذي يعد شـريانه الرئيس. ويدعم إمداده المائي بواسطة الروافـد الأقل أهمية وهي عـيديد ودمون على جانبي المدينة والتي يقع بالقرب منها إلى ناحـية الشرق في الضفة اليسرى لقناة المسيلة، نخيل وقرى النجير.

ومبلـغ علمي أن الموقع الحديث لتـريم لا يوجد ادعـاء لاعتـباره موجـود منذ القـدم. إن بعض أجزاء حـوضه تبـدو ظاهراً أنها كـانت تحت احتـلال نشط بواسطة الإنسان منذ زمن بعـيد. ومما تجدر الإشارة إليه -ولـفائدة الباحثين في المسـتقبل- أنه بالرغم من أن تريم قد ذكرت بواسطة الجغرافيين العرب القدامى إلا أن بليني واسترابو لم يذكرا أسماء تحمل أي شـبه لها. وذكر بليني في قائمته أسمـاء ثلاث مدن حميرية وهي سيبي، وثمـنة، ونجية وهذه ذكرت بوضوح. وكـذلك ذكر بغير وضـوح أسماء مثلث شبي، ودمـون، والنجير. ولا يمكن أن نحمل الأمر أكثـر من ذلك خاصة وقد تكون طمي كثير في سطح وادي حضرمـوت. على أن الحفر والتنقيب الأثري وحده كفيل بكشف الأسرار المدفونة في أعماق التربة.

ما زالت بثي في فم الوادي باقيـة كقرية صغيـرة بها مساحة كبـيرة من النخيل. وتطورت عيديد بسرعة إلـى مدينة ذات حدائق، مع الفـُل والمنازل ذات الطابق الواحد لعائلة الكاف، وتقـبع بساتين نخيلها المنتـشرة من جدران المدينة باتجـاه الخارج فوق قم الوادي حيث يجري طريق على مدى حافتها على طول طريق جذاب من أشجار السدر حتى حائط المدينة والتي دخلناها عن طريق واحد من أبوابها المتسخة مباشرة بعد مغيب

الشمس. وتوجد المقبرة المحلية الضخمة في هذه النقطة في داخل الحائط مباشرة، وهي مقسمة إلى عدة أقسام بواسطة الطريق الذي يمر خلالها في عدة اتجاهات. وتكوّن القبو النظيفة المعتنى بها جيداً مع الشواهد المنحوت عليها وبعض الأضرحة الشبيهة بالقبب والسراديب مدينة موتى حقيقية عند عتبة مدينة الأحياء. ومررنا خلال المقبرة بالطريق ذي الطابع القديم المتعرج في اتجاه مسكن السلطان عبد الله بن محسن حاكم الكثيري. وكان ذلك مساء الخميس والطرق مزدحمة بالنساء اللائي يلبسن ثياباً صفراء أو خضراء خفيفة أو زرقاء وهن عائدات إلى منازلهن يحملن مؤناً لاحتياجاتهن الأسبوعية. ويوجد بمدينة السادة وقف منظم جداً هو مؤسسة لتوزيع الأغذية والنقود وضروريات الحياة على المحتاجين. وفي مساء كل يوم جمعة يذهب الفقراء إلى مصادر الإحسان. وهم في هذه اللحظة متجهون إلى منازلهم يحملون عطاء الله في جيوبهم الكبيرة. والأطفال في هذا الازدحام عددهم كبير كأمهاتهم ليس من السهل أن تمر من خلال هذه الجمهرة. ووصولنا إلى مسكن السلطان أصابه بدهشة، لأننا لم نتمكن من إبلاغه مسبقاً عن رغبتنا في زيارته. وكان يجلس مع قلة من الأصدقاء في الخارج تحت ظل لمبنى الكبير الذي أجّره مؤقتاً من أحد أعضاء عائلة آل الكاف بينما أعيد بناء وتحديث القلعة القديمة في هضبةٍ في وسط المدينة ليسكن فيها السلطان نهائياً. ووجهنا مباشرة إلى أعلى حيث غرفة استقبال كبيرة ثم انتقلنا بعد زمن قليل إلى السطح لنستمتع ببرودة المساء. وانتشرت أخبار وصولنا في المدينة في لحظات قليلة وعليه تجمع كل الناس في القصر لاستقبال الزوار والترحيب بهم. وكان معظم المتجمعين من الشخصيات الكبيرة من أفراد عائلة آل الكاف، العديد منهم كانوا صغاراً في بداية طريق الرجولة، مع وجود السيارات وسبل الرخاء الأخرى تحت تصرفهم، وأمامهم الحياة كلها ليستمروا في أداء العمل الجيد كالذي قام به كبارهم من الجيل الحالي، ولم يهمل تعليمهم ذلك لأنه إضافة لوجود عدد من المدارس في المدينة التي أسستها عائلة الكاف، فإن للعائلة مدرسة خاصة لأبناء العائلة فقط.

وتعد اللغة الملاوية عند هذه العوائل لغة ثانية ويتحدثونها بطلاقة فيما بينهم ومع خدمهم. وعندما تكون العائلة في جاوة وسنغافورة كأنها في بلدها حضرموت ولكن الحضرمي مهما يكن من أمر فإنه في الخارج لا ينسى بلاده الأصلية -وليست هي بالضرورة الأرض التي ولد فيها-، وبلا استثناء تقريباً يرجع لها يوماً. ويلاحظ أنهم يحبون بلادهم بشدة حتى عندما يكون انتقادهم لنواحي التقصير فيها عنيفًا جداً. ولقد كنت غير محظوظ في توقيت زيارتي وذلك لأن الإخوان الثلاثة المعترف بهم كقيادة لمجتمع تريم كانوا في زيارة لمصر والذين يوجدون معنا هنا هم أبناؤهم. أما الزعيم المعترف به عامة لرواد التطور في حضرموت هو سيد أبوبكر بن الشيخ الكاف، الثاني من الإخوة الثلاثة الكبار، أما الاثنان الآخران فهما عبدالرحمن (الأكبر) وعمر. العضو الأكبر مقاماً في العائلة والذي يعتقد أنه الأكبر عمراً مع أنه أكبر مني بقليل هو أبوبكر بن حسين بن الشيخ الكاف رجل جذاب وسيم، راجح العقل وقد قام بواجبه كالعضو الأكبر في العائلة لتسليتنا والاهتمام بنا جميعاً في وقت الغداء في اليوم التالي. وبالنسبة لبقية أعضاء العائلة كان من الصعب عليَّ أن أعرفهم جميعاً لأني كرجل غريب في أول زيارة لي لا يمكنني أن أجد طريقي خلال هذه الأسماء المتطابقة لعائلة قادت التطور ونمت إلى حجم قبيلة. ولم أنجح في اكتشاف من هو الكاف الأصلي الذي أصبح اسمه هو اسم العائلة لفرعه من السادة آل علوي وكذلك لم أعرف متى عاش، ولكن بعد زمن قليل أدركت أن المصطلح المألوف «الشيخ» يستعمل في هذه العائلة كاسم حقيقي.

قضيت الصباح التالي في جولة من الزيارات إلى عدد كبير من منازل عائلة آل الكاف في المدينة نفسها وضواحي عيديد. والمنازل الأخيرة (في الضواحي) ذات بناء حديث على شكل فيلا بينما منازل المدينة قد يرجع تاريخ بنائها إلى نصف قرن أو أكثر، وهي عامة أكثر فخامة مع ميل بسيط للزخارف النباتية. وفي الحالتين فإن الإلهام أتى من سنغافورة أو جاوة. ورأيت ماكينات دويتز في واحدة أو اثنين من حدائق

عيـديد والتي يستـخدم معـظمها لأغـراض الضخ. وبعض المنازل بها إضـاءة كهـربية وحـمامـات ممتازة إضافة إلى حـوض السباحة (يابي). وفي مـعظم المنازل يوفر الثلج، وفي اعتـقادي أن كل منـازل آل الكاف ومنازل السلطان الاثنين موصلـة كلها بأجـهزة تلفونات يحتوي كل منها على عشرين إلى ثلاثين رقـماً. وحققت التجارب في حدائق الفاكـهة تقدماً جـيداً في بعض المجمـعات، حيث رأيت أشجـار الكرم والرُمان والموز والتين والجوافة والخوخ والمشمش والباباي والذي يعد أكثر الأشجار الدخيلة نجاحاً كما هو الحال في مكة المكرمة. أما أشجـار الليمون فيبدو أنها متقـدمة في النمو والتأسيس وإنه لشيء مفـرح عندما ترى حـرص كل أفراد العـائلة الصغار والناضـجين على هذه التجارب تحت التطوير وهم بالتـأكيد يجعلوننا نعجب بهم للمثال الجـيد الذي يضعونه للعمل. ودون ريب فإنه في السنوات القادمة سوف لن يكون لهم سبب لينكمشوا من المقارنة بالآخرين. ولا غرو فإن الله أعطاهم منطقة خصبة وساحرة كأي مكان آخر.

على الرغم من أن ماكـينات الضخ تتقـدم بسرعة لكن مـازال هناك العديد من الآبار تعتمد كما في الماضي على السـحب بواسطة الإنسان، فريق مختلط من الرجال والنساء، أربعة أو ستة يسيرون إلى أعلى أو أسـفل، في منحدرات قصيرة مطابقة في طولها إلى عمق الآبار غير العمـيقة لحسن الحظ. وفي كل مرة يصل الفريق إلى أعلى المنحدر، يتوقف ويندفع إلى الأمـام مردداً أغنية ساحرة قبل سـحب الحبال إلى أسفل لسحب دلو الجلـد المليء بالماء إلى أعلى. وهؤلاء الفلاحون الـذين يعرفون بالفـقراء يبدو أنهم أحفاد المشايخ[1] وهم يكونون نسبة كبـيرة من السكان، وفي الأيام السابقة كانوا يمثلون طبقات الموظفين في السلك الكتابي، يعيشون على هبات السادة وزوارهم ولكن مصطلح المـشايخ قد فـقد منذ زمن طويل أي دلالة على التـعليم وأصبح الآن

(١) الفقـراء: من قبائل شبـوة، يعرفون بالفـقراء عند أهل الجوف، وبالمشـايخ عند أهل حضرموت، الحـجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج٢، ص٤٤٥. (المراجعون).

مجرد إشارة إلى الطبقة أو العشيرة، وبالتأكيد فهو مؤشر إلى الدونية. ولم تعد حضرموت أرض القديسين تربي وتغذي جمهوراً من المتطفلين ليشاركوا البدويين في سلب حجاجها. وعليه فإن الفقراء عليهم لكي يعيشوا أن يكدحوا في خدمة الأسياد الأعلى الذين صنعوا هذه الثروة في الخارج بالعمل في الأرض والأعمال التجارية ويستعملونها الآن في تطوير بلادهم.

وتريم في مجملها مدينة مخيبة للآمال، ومن المحتمل أن يعزى ذلك إلى أن وحدة المشهد تعترضها دعامة منخفضة من الهضبة تخترق المدينة لتوطيد التلعة القديمة. وفيما عدا ذلك ووجود القصور الجميلة للسكان الأغنياء، فإن المدينة تفتقر إلى مبان عامة عظيمة، وبها منطقة سوق ضعيفة وسيئة للغاية. فالمدارس عبارة عن منازل حوّلت لأغراض تعليمية وحتى بين المساجد لا يوجد هناك مبنى يثير الإعجاب: وهناك مئذنة مسجد المحضار الطويلة المربعة والجميلة التي تمثل مظهراً معمارياً حقيقياً يمكن أن تفخر به المدينة، ويبدو أنها ليس في مكانها كلياً على الرغم من أني لم أتسلقها ولكن أستطيع أن أقول إنها مطلة على منظر جميل للمدينة. وعليه فإن قمة باعشمين الأكثر علواً وبعداً يمكن رؤية مشهد جميل للمدينة منها كذلك. إذن لا يمكن مقارنة المنظر هنا بسيئون. والمسجد الجامع، هو مبنى جميل للغاية ستة أو سبعة صفوف من الأعمدة في اتجاه القبلة وتوجد ساحة مفتوحة تفصلها عن صفوف أعمدة مشابهة ولكن أقل عمقاً في الجانب الآخر. والمبنى ضخم ولكنه بسيط للغاية في الأسلوب. وبما أنه المسجد الجامع الوحيد في المدينة فقد صمم ليسع كل السكان من الرجال البالغين في وقت واحد. ومع أن عدد السكان الكلي في المدينة ٣٠,٠٠٠ نسمة مما يعني سعة ٨,٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ مصل. وكان المسجد ممتلئًا بالناس في صلاة الجمعة إلى أقصى سعة عندما حضرت الصلاة مع السلطان. وكان موقعنا في الصف الثاني بالقرب من المحراب. أما الصف الأول فيبدو أنه محجوز للعلماء والذين دخل وخرج معظمهم عن طريق باب الإمام الخاص بالقرب من المحراب في

الحائط الخلفي. وأثارت الصلاة هنا انتباهي وذلك لوجود لمسة (متكلفة) أكثر من الصلاة في نجد والحجاز، فمثلاً يكون الإمام محجباً كلياً عند دخوله بواسطة غطاء رأسه ذي اللون الأبيض الذي يشبه القلنسوة. وبعد الصلاة عند مغادرتي للمسجد مع السلطان سائرين في اتجاه السيارة شعرت بأني بطل المناسبة. إذ تجمع جمهور كبير حول السيارة، وعندما ظهرت على عتبات المسجد ونزلت نحو السيارة عرفت أني الشخص المحتفى به من الجمهور بهدوء ونظام واضح. وسمعتهم يقولون: «ذلك هو» ثم «السعودي». وكان مروري بالأرجل أو السيارة مناسبة في كل مدن حضرموت مماثلة لهذه ولكن بطريقة أصغر من هذه المظاهر. ودائماً كنت أسمع همسات رهبة تقول أحياناً «نصراني» وهو مصطلح أقوى بقليل من مصطلح رجل إنجليزي أو أجنبي. وأعتقد أنه سوف يتحدث الناس في حضرموت لزمن طويل عن زيارتنا لهذه الأجزاء وخاصة وصولنا بالسيارة كمناسبة ذات أهمية أو معنى غير عادي. وخلف هذه الهمسات تتسلل رؤى موحية بالسلام.

ولا عجب أن تشكل الدائرة الطولية لحائط المدينة، المبتدئة من نقطة على خندق شديد الانحدار والمنتهية في آخره، الحماية الوحيدة للسكان ضد الحرب. والعدو على أبوابهم أو على بعد ميل منهم تحت الخندق المقابل. ويأمل الجانبان في استمرار الهدنة، ولكن أي حادث مؤسف بسيط قد يضع حداً لها. وتوجد في الحائط أبواب ليست فيها ميزة معمارية، تعمل كمدخل للمدينة من عيديد ومن سيئون ومن الشحر وطريق العربات من عينات ومن دمون على التوالي وبهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق في اتجاه عقارب الساعة. وثمة منازل للحراسة توجد على أبعاد متفرقة ومكررة بين لأبواب، قوية البناء، بينما وقف حصن صغير كحارس في كل طرف من الحائط. ولا يوجد حائط على طول وجه الخندق وليس هناك حاجة للمراقبة.

لا حاجة لي إلى الحديث كثيراً عن الضيافة الجميلة لأهل تريم أثناء فترة بقائي معهم التي كانت قصيرة جداً، وفي كل ذلك الوقت قاموا بخدمتنا والترفيه عنا دون

كلل أو ضجر. واستخدام الشاي هنا بدلاً عن القهوة في الضيافة. وتجهيز الشاي هما عملية معقّدة وطويلة كما هو الحال في تجهيز القهوة في نجد. ويجهز الشاي في غرفة الاستقبال بواسطة خدم يشرفون على تقديم الشاي بكل معداته الضرورية من شاي وسكر وبراد (إبريق) وأكواب وملاعق. وعندما يغلى الماء يملأ إبريق صغير إلى نصفه بأوراق الشاي ومن ثم يملأ بالماء ويترك في الموقد. وتملأ الأكواب إلى ثلاثة أرباعها بالماء الساخن ثم يضاف السكر. -في كميات كبيرة ولكن كان دائماً يجهز لي إبريق شاي بلا سكر منفصلاً ومعه كوبان حسب حاجتي- ويصب الشاي من الإبريق الصغير في الأكواب وهو قوي جداً ومر. وتوضع الأكواب عادة على الأرض أمام الضيوف بواسطة الخدم. ويقدم للضيوف أو الزوار المميزين كوبان، وهذا أيضاً يحدث عند تقديم القهوة وهو مظهر غريب على قواعد التشريفات. وعندما يأتي الزوار في وقت غير وقت الوجبات فإن المضيف لا يعد ضيافته مكتملة دون أن يقدم وجبات خفيفة منعشة، مثل البسكويت والحلوى والمعجنات المنوعة محلياً والفاكهة المعلبة. وعليه فإن ضيافة يوم يمكن اعتباها اختباراً جاداً لسعة تحمل الضيف وذلك نسبة لكمية الأكل الكبيرة التي تقدم.

يختلف السلطان عبدالله بن محسن عن أخيه محمد الذي يعد بعض الشيء نحيلاً وضعيفًا. والسلطان عبدالله ثقيل في بنائه الجسماني وأكثر مرحاً ولكن دون طموح فكري كبير أو مقدرات نقاش. ومظهره الذي يشبه مظهر حفيده السلطان علي ابن منصور من سيئون، يعطي انطباعاً بأنه مزارع صغير ميسور الحال أكثر منه حاكم الأرض والذي نجد أن مسؤولياته قد تكون السبب في تجعد جبينه الذي لفت النظر. وفي محيطه الخاص فهو يحتل موقع ملك مستقل ولكن إلى حد ما تطغى عليه عناصر عائلة آل الكاف، وفي نواح أخرى فرضت الظروف عليه بعض القيود التي بالتأكيد يستاء منها. وقد حدثت مشكلة بينه وبين السيد أبي بكر بن الشيخ الكاف قبل حوالي أربع سنوات لم أحاول أن أتحقق منها. ونتج عن المشاجرة هجرة السيد إلى

سيئون تحت طلب السلطان علي، وهناك مـا زال يعيش في منزل جميل جداً من طابق واحد والذي بناه لنفسه في حي الحـديقة في المدينة، وعلى الرغم من أن حديقة المدينة لم تكتمل بعد إلاّ أن المنزل نفسه مع غرفه الواسعة وحوض سباحته الكبير من المحتمل أن يكون أفضل فيلا بنيت حتى الآن في حضرموت. وكان لابد لي من أن أقضي هذه الأمسية في منزله هذا وذلك لأني وجدت عند وصولي إلى سيئون أن السيد سقاف بن السيد أبي بكر الذي كان بعيداً في مصر قد استجدى السلطان ليسمح له باستضافتي.

يقع بعيداً إلى الشرق من تريم واحـات عينات وقسم، وفي الوراء تقع بني هود وبئر برهوت وكانت جـميعها مغـرية لي، ولكن بما أني وصلت ورأيت تريم فلابد أن يكون هناك حد لتـجوالي. وعليه وبعـد يوم لطيف من الضيافـة المكثفة، مـررت مرة أخرى عبر حائط تريم وعدنا بالطريق نفـسه الذي أتينا به فوصلنا إلى قصر السلطان. وكان القصر خالياً وبدون أثاث لأنـه في مثل هذا الفصل يسكن السلطان كأي شخص آخر في حديقـة المدينة. والغرف التي بها أثاث هي الصـالون الرئيس وفي تقديري أن مضيفي قد نقل نفـسه هنا مؤقتاً ليمنحني المتعة المُقـدرة جداً لرؤية القصر من الداخل ورؤية منظره المشهور. وتحركنا جميعـاً إلى منزل الكاف الأرضي بعد راحة قصيرة هنا لشرب الشاي. أخذني السلطان برفق، بسيارته في طريق متعرج غير مباشر عبر المدينة لكي أرى شيئاً من داخلها. ولاحظت أن المدينة أكثـر وسعاً في جانب الحديقة منه في الجزء القديم في اتجـاه البوابة الغربية، والمنازل بالمدينة جيّدة البناء، والـطرقات واسعة نسبياً ولـطيفة. وفيما عدا المسـجدين الصغيرين اللذين يمكن أن ينجـذب لهما الناظر فهناك القليل الذي يمكن ملاحظته.

أرسل السيـد السقاف دعـوات إلى عدد كبـير من الناس لمقابلتـي بينهم مواطن حضـرمي من مكة والذي وصل حـديثاً هنا بعـد أن بقي كثـيراً في مـوطنه في وادي دوعن. وكانت غرفـة الاستقبال الرئيـسة في المنزل محاطة من الجـانبين بواسطة شرفة حيث جلسنا نتحادث أثناء شرب الشاي حتى وقت وجبة العشاء. وكان غالب النقاش

عن طريق السيارات إلى مكة الذي كان يثير اهتمامهم للغاية. وفي أثناء النقاش برز موضوع شبوة وفي هذا الوقت علمت أن هنالك زيارة قام بها هانز هلفريتز قبل ثمانية عشر شهراً إلى عاصمة حمير قد سبقت زيارتي لها. وعندما لجأت إلى السرير في تلك الأمسية جلست أقرأ في قصته التي هي مغامرة مثيرة يعزى نجاحها بقدر كبير لشجاعته وبراعته. وشعرت بسرور معين وذلك لحقيقة أني إذا لم أكتشف شبوة فقد اكتشفت على الأقل من هو مكتشفها. وبطريقة ما شعرت أن خيبة أملي على نلتها بهذا الاكتشاف هي مماثلة لخيبة أملي عندما وجدت شبوة نفسها لا تستحق كل هذا اللغط الذي أثير حولها.

لقد اكتشفت في تريم عرضياً اكتشافاً آخر أقل إدهاشاً ولكنه ليس مهماً، فمن كل المجموعة التي تجمعت في منزل الكاف في أمسية وصولي كان الرجل الوحيد الذي له طموح وجاد ورغبة في التعلم أو القراءة الواسعة هو سيد محمد بن هاشم[1]. وبعد بعض الحديث عن طريق سيرنا عبر الصحراء إلى العَبْر تذكر أنه رأى تقريراً عن طريق الحجاج القديم هذا في مجلة عربية نشرت قبل بضعة سنوات في بتافيا. ولحسن الحظ فإنه كان قادراً على أن يمدني بالموضوعين منشورين في مجلة تسمى الرابطة بتاريخ يونيو ويوليو ١٩٣١م. والحج الذي ذكر قد قامت به مجموعة من تريم مع آخرين من أجزاء أخرى من الوادي والتي تجمعت في قعوضة في شهر شوال من العام ١٢٨١هجرية (١٨٦٤م). وتقدمت في المراحل السهلة إلى العبْر ومن هناك إلى خلف مشينيقة. وكان الطريق الذي اتبع مطابقاً لطريقنا وقد كان على طول

---

(١) هو محمد بن هاشم بن عبدالرحمن العلوي ولد سنة ١٣٠٠هـ بحضرموت وتلقى علومه على جملة من شيوخ تريم حتى برع في عدة علوم وفي سنة ١٣٤٥هـ رحل إلى جاوة وساهم في تحرير صحفها وتزعم المبعثة المرسلة إلى مصر سنة ١٣٢٤هـ، وأحيا الندوات الثقافية في بلده إلى وفاته سنة ١٣٨٠هـ ، له عدد من المؤلفات منها: تاريخ الدولة الكثيرية، طبع في مصر سنة ١٩٤٨م، السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين جـ٥ ص٢٨٩-٣٠٠، دار المعارف الطائف، ط٣، ١٤١٨هـ، الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ص٥٢٤، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٨هـ. (المراجعون).

خط درب الأمير، والنقطة الأكثر تميزاً وروعة فيه أن القافلة كما ذكر من قبل استطاعت التزود بالماء عند البئر التي تعد الآن ميتة وهي بئر مشينيقة وعليه استطاعت تجنب الشضيف. قاطعين في خط مستقيم عبر الصحراء عن طريق مرتفع الحيض إلى وادي الخب المنخفض ثم تقدم أهل تريم إلى القرى الواقعة في أعلى الوادي ومنها وصلوا نجران عن طريق صعدة. ثم اندفعوا من نجران عبر الجبال إلى محايل ووصلوا إلى ساحل البحر عند القنفذة ومنها تقدموا إلى مكة المكرمة. وكل الرحلة من قعوضة عرفت بثلاثين مرحلة ولم تصادف المجموعة أي صعاب خطرة[1]. وكاتب الموضوعين مواطن من تريم يدعى السيد محمد بن إبراهيم بلفقيه آل علوي والذي يبدو أنه اشترك في الرحلة. وجهز قريب له هو عبدالله بن حسن الفقيه كتاباً ولكن لم ينشره عن السيد أحمد بن عيسى أول السادة العلويين الذي سعى أن يقيم في حضرموت. وفي هذه الأيام كانت تريم في أيادي عشيرة محلية تسمى الصبرات والتي لأكثر من قرن رفضت أن تسمح للسادة العلويين بالبقاء في المدينة. ومحمد بن هاشم نفسه نشر كتيباً عن تجواله في منطقة حضرموت الذي قدم لي نسخة منه.

سكنت لفترة الليل في سطح سقف مطل على حوض السباحة ووجدت، بذهابي إلى هناك أن ثمة استعدادات متقنة للغاية قد جهزت لراحتي، ناموسية جديدة ولكن غير ضرورية ومرتبة مريحة ومترفة للغاية وأغطية غنية بالزخرفة والتطريز ووسائد عديدة. وفي الصباح التالي كان عليّ أن أتخلص من مضيفي والعديد من الآخرين الذين كانوا يميلون أن يجعلوا من استقبالي مناسبة بينما أنا كنت أميل أكثر لتناول شاي الصباح في عزلة. وعلى كلٍّ انضممت إلى المجموعة العامة من الطابق الأسفل لتناول الإفطار وبعدها قمت برحلة للحدائق الكبيرة التي لم تكتمل بعد. وتوجد نافورة في الوسط مزينة بزينة هندية مليئة بالأزهار تبدو أنها لا تناسب الجو

(١) عن طريق الحاج الحضرمي انظر: الحداد، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، ص١٣٣؛ البلادي، بين مكة وحضرموت، ص١٨٦-١٨٧. (المراجعون).

البسيط الساحر المحيط بها، وفي الركن الأقصى من الحديقة توجد البئر ومعها ماكينة دويتز التي جهزت للضخ وستصبح الحديقة أنموذجاً لكل حضرموت في سنوات قليلة آتية كما هو المنزل الآن.

وعدنا السلطان محمداً أن نذهب إليه في القصر وهذا ما سنفعله الآن بعد أن غادرنا السيد سقاف والسلطان علي عند أبواب منزل الكاف، وقصر محمد تقريباً مثل قصر ابن عمه. وكلاهما مزيّن بالطلاء الأبيض تتخلله أشرطة زرقاء باهتة ذات تأثير مثير جداً. وأكبر القصرين هو قصر علي الذي يقف في العراء فوق المباني المنخفضة للسوق. وبعد دورات الشاي المعتادة كان لنا الحرية أن نغادر وعليه قدنا السيارات عبر البوابة الغربية للمدينة متجهين إلى شبام. وكان برنامجنا يشمل زيارات إلى الأقرباء القيادية لعشيرة آل كثيري والتي تقع مساكنها على الطريق، وكذلك فإن البرنامج يشمل انعطافين خفيفين عن الطريق. فالأول كان إلى الشيخ عمر بن عبيد الجبري الذي يعيش في منطقة الغرفة. وقبل أن نصل إلى النقطة التي كان علينا أن ندور من عندها، قاطعنا رسول من سلطان علي بن صلاح معه رسالة إلى حسين.

بالنسبة لمقتل فلاح قعيطي حديثاً بواسطة واحد من عشيرة العبيد فقد أصدر السلطان أمراً بأن لا يسمح لعضو من تلك العشيرة بدخول منطقته. ونتيجة لهذا فقد تكون هنالك رغبة للانتقام عند مضيفنا المزعوم؛ ولذا فقد رأى حسين أنه من الحكمة أن نترك هذا الجزء من البرنامج. وواصلنا سيرنا خلال الغرفة إلى الحوطة مباشرة، تاركين الطريق الرئيس إلى شبام، حيث تقدمنا على امتداد قرية التبيّول المبعثرة ومروراً بقرية سالم بن مانع الصغيرة وهو تاجر كثيري ثري من سنغافورة يعيش الآن في بومباي. وكان هدفنا الوصول إلى العقدة، وهي مجموعة من المنازل الجميلة وبساتين النخيل فوق الوادي (وادي ابن علي) ولكن بعد فترة وجدنا صعوبة في إيجاد الطريق الصحيح إليها. وبعد محاولات عديدة اهتدينا إليها وحالاً وصلنا إلى البوابة الضيقة لمبنى فخم للغاية. ويشكل هذا المنزل ومنازل أخرى مشابهة ذات

طراز حديث مساكن عشيرة تتكون من أخوة وأحفادهم وزعيمهم هو مضيفنا سالم بن جعفر بن سالم بن مرعي بن طالب الكثيري. وبعد العائلتين الحاكمتين لسيئون وتريم تأخذ هذه العشيرة الأسبقية بين الكثيري مع عمر بن عبيد من الغرفة في المرتبة الثالثة من لتسلسل. والرجل العجوز كما يدعى دائماً بواسطة أقاربه وأتباعه وخدمه استقبلنا في باب قلعته وقادنا إلى الطابق الأعلى إلى غرفة الاستقبال حيث ساعده في ضيافتنا أخوه وابن أخيه المتوفى. وفي الأصل هناك ستة إخوان يعيش منهم ثلاثة فقط وهم مضيفنا نفسه وعبدالله وصالح.

كان الرجل المسن سالم هو الأكثر حيوية في كل المجموعة وقد أصرّ على سيري معه إلى أعلى إلى سطح المنزل لإجراء مسح للبلاد عن طريق تلسكوبه حتى المواسم الداخلية البعيدة من روافد وادي ابن علي. وكان الوادي كله كثيف الأشجار وتوجد فيه بساتين نخيل وعدد من القرى الكبيرة والصغيرة ومنازل متفردة مبعثرة بينهما. وقال لي سالم: هناك ترى بلادي وأصدقائي وأعدائي. ولا يوجد من يهتم بقضية السلام أكثر منه من بين كل الرجال الذين التقيتهم. فالرجل عاش حياة مليئة بالمشاكل وذلك يرجع تقريباً إلى بداية الخلط الذي أدى إلى توزيع القوى والامتيازات الحاني. إنه يريد السلام لأحفاده الذين قد يستمتعون بالإرث الذي استطاع هو أن يحافظ عليه متماسكاً بل طوره. السلام بأي ثمن. ويقول: «على ابن سعود أن يتدحل بين الحكومات المحلية المنافسة من أجل السلام والأمن في البلاد» وأوضحت له أن ملك العرب ليس له نية للامتلاك والكسب في أي اتجاه. وهو فخور باستقلاله الخاص والأمن الموجود في بلاده. وهو دائماً مستعد لمساعدة جيرانه من العرب ليتمتعوا بالسلام والاستقلال. أما ميثاق العرب والذي استهل باتفاقية العراق فهو مفتوح للجميع لتبنيه. ولم ننو أن نمكث حتى وقت الغداء ولكن مضيفينا لم يضيعوا وقتهم في المشاهدة بينما نحن نتجاذب أطراف حديث شيق لم أستمتع بحديث مثله

خلال هذه الأيام. وقُدمت لنا وجبة ممتازة مع بساطة ذكرتنا أن زمن المغادرة قد حان وكان الرجل المسن سالم واقفاً في البوابة بينما نحن نتحرك بعيداً ويبدو كأنه شبح من الماضي يستحضر في ذهنه مستقبلاً باهراً لأحفاده.

بمرورنا على طول جوانب قرية السيد من الحزم المبعثرة وعبر مدينة سحل، عبرنا الوادي وأصبحنا للمرة الثانية ضيوفاً للسلطان علي بن صلاح في شبام. وما زال السلطان هنا يحتل جزءاً من القصر ولكن عند المساء انتقل إلى المنزل المقابل ليترك لنا مساحة أكبر. وتناولت طعام العشاء معه ووجدته متلهفاً لمعرفة التفاصيل عن خروجي، من قابلت؟ ماذا قالوا لي؟ وماذا فعلنا . . . إلخ. ويعرف كل الناس بعضهم بعضًا في بلد صغير مثل هذا بالطبع، فإن الحادثة البسيطة التي لها دلالة عند الخبير قد لا تعني شيئاً للزائر. وفي هذه الأثناء لم يتوقف سعد بن ناصر عن العمل. فقد قام لتجهيز كل شيء. والجمال التي تحمل الأمتعة قد غادرت من قبل إلى شبوة تحمل أربعة وعشرين برميلاً من البنزين ومؤنًا أخرى لرحلة عودتنا. وفي اليوم التالي بدأت الجمال المرافقة تتحرك مع تعليمات مني للقاء في هينن.

وتبدأ رحلة السيارة بعد يوم من ذلك وهو يوم ٢٤ أغسطس. وفي هذا الوقت كان عليّ أن أكتب بعض الخطابات للوطن وأن أعد نسخة ثانية من نقوش شبوة كي أرسلها إلى المتحف البريطاني. وهنالك الكثير من أعمال ترتيب الأمتعة يجب عليّ أن أقوم بها. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ذهبت إلى المنزل في سحيل لتناول الغداء مع «بيرن» والذي كان سيبدأ رحلته إلى شبوة بعد الظهر، وقد قدم لي غداءً ممتازاً من المعلبات ثم تركته ينتظر جماله ومرافقيه الاثنين من عرب شبوة. جاء ليودع السلطان حوالي الساعة الخامسة مساء والذي كان يقيم حفل استقبال في شقته في ذلك الوقت لمشاهدة رقصة حضرموت والذي قدم في الميدان في الأسفل وكان الاستمتاع واضحاً على الجمهور الغفير الذي كان يضم مجموعة كبيرة من الفتيات الصغار يلبسن ثياباً مزهرة جميلة. وكان «بيرن» يلبس ملابس عبارة عن خليط فني من البني والأزرق

وبز: فوق ملابسه وكـان مظهره جميلاً. ذهب «بيرن» وسـوف نلتقي ثانية عند هينن. كان الرقص في الأسفل رتيباً بعض الشيء وغير جذاب. فقد نظمت المجموعة نفسها حول أربعة جوانب من الميدان غير الواسع جداً، يدفع المرشدون المتطوعـون الجمهور من وقت إلى آخـر إلى الوراء لمنعـهم من الدخـول إلى حلبة الرقص مـحـافظة على الشكل العام. وفي منتصف هذا الفضاء وقف خمسة من قارعي الطبل، فالرجل الذي في الوسط معـه الطبل الأكبر بيـنما الآخرون يحـملون طبولاً صغـيرة كل زوج منهم يحمل شكلاً مـختلفاً من الطبـول. وعلى كل جانب من خط قارعي الطبـول وقفت مجمـوعة من الراقصين. تقرع الطبول مرة فـي صف وثانية إلى الصف الآخر. وعند مرحلة التسخين يتـقدم صف إلى الآخر لأداء دوره حتى تصبح فرقة الطبول مـتجمعة في الوسط. وعندما يرقصون إلى الوراء عائدين إلى وضـعهم الأصلي يتبعهم الصف الآخر إلى الطريق المسدود نفسه.

وهكذا استمر الرقص بلا نـهاية حتى بعد غروب الشمس مبـاشرة، عندما أخذ الراقصـون يتخلصون من هراواتهم القـوية ويتبعـون فرقة الطبول، خـارج المسرح إلى الشـوارع. ويبدو الرقص مملاً عندمـا يكون صف الراقصين ثابتـاً وهو عبـارة عن أربع خطوات يتبعها بعض التمايل والحركة إلى الجانبين ثم إلى الأمام والخلف. وأثناء التقدم والتقهقر للراقصين هنالك تنوع كبـير في الأشكال مما يجعلهم يتعلمون بمختلف الطرق عند الوثب من نقطة إلى أخرى أو القفـز إلى أعلى في اتجاه الأمام والخلف مع تماسك الأيادي أو الأذرع، وهكذا يستمر الرقص أربع خطوات أخرى يبدو أنهم يأخذون الأمر بجدية فائقة وبعض الأشخاص مولعون بتقديم رقص جديد من اختراعهم.

كان ذلك آخـر تجربة لنا في شـبام رغم أن السلطان حـضر مـعنا لاحقـاً جلسة استماع للراديو فوق سطح القصر. وقمت في الصباح التالي بجولة أخيرة حول طرقات المدينة. وكان كل شيء جـاهزاً حوالي الساعة ١٠ صبـاحاً. وبدأنا رحلتنا الطويلة إلى نجرن بالسيارة المحمّلة. وقد ذهب السلطان نفـسه إلى هينن في عمل سياسي له ارتباط

باتفاق أسقطته فوضى نهد، وسوف أراه هناك لأودعه نهائياً. وعند وصولنا إلى العبرة لاحظنا أن السيارة الأخرى لا تتبعنا؛ لذا فقد انتظرت قليلاً حتى جاء خادم ليخبرني أن هناك عطلاً في السيارة الأخرى وأن الصيانة لن تستغرق وقتاً طويلاً. وعليه يمكننا أن نستمر نحن ونتركهم يتبعوننا لاحقاً وبعد تفكير بسيط قررت أن أستمر في الرحلة وهطلت الأمطار الغزيرة بين شبام والقطن بعد ظهر اليوم السابق وقد لاحظت من السقف سحباً رعدية في جهة الجنوب الغربي. وبدت التربة الطينية المالحة في الوادي غير مفرحة ولكنا سرنا إلى القطن دون مغامرة. وهناك وجدت المرافقين لي على الجمال قد استقروا بكل ارتياح في القصر ينتظرون وجبة منتصف النهار. لقد فكروا في أن أي تلكؤ مثل هذا سيكون مبهجاً أكثر من الاستمرار في السير إلى موعدنا المحدد. وقد عبرت عن رأيي في ذلك بإيجاز ثم تناولت غدائي وواصلت رحلتي. وخلق وجود بعض الرمل في خزان وقود السيارة مشكلة كبيرة مما عطلنا قليلاً. وعندما انضممت إلى السلطان وابن مرتع في صالون الأخير الرائع كان الوقت ما زال باكراً.

كنت أستمتع باستراحة ترحيب في الساحة المتصلة بالبهو في ظل الحائط عندما أيقظني صوت وابل من الطلقات النارية. وكان هذا الصوت مجرد تحية معتادة وفد من خمسة رجال من قرية من منطقة نهد، وكان هذا أول وفد من الوفود الخمسة القادمة من الأقسام المتنافسة المختلفة لحضور مؤتمر دعا نه السلطان. وبينما كنت نظر إلى السهل من على السقف رأيت الوفود الأخرى قادمة إلى هينن، كل رجل كان سائراً على رجليه ومدججاً بالسلاح. وتكرر الترحيب نفسه والاستقبال لكل الوفود وعندما يصل الوفد أمام المنزل يطلق وابل من الطلقات مع استمتاع أطفال القرية الواضح، بعد ذلك يقترب الوفد من الباب حيث يرحب بهم فردياً وذلك عن طريق السلام بالأيدي وهزها بواسطة أعضاء عائلة آل مرتع ومن ثم يسلمون أسلحتهم إلى الخدم عند الباب ويقدمون إلى السلطان من غرفة الاستقبال في الأسفل بعد الانتهاء يخرج أعضاء الوفود المختلفة ويستعيدون أسلحتهم راحلين إلى بلادهم تاركين مع

السلطان وثيقة موقعة تحمل الشروط التي اتفقوا عليها جميعهم تحت رعايته. ومن الواضح أن المفاوضات كانت سريعة ومع أني لم أر الوثيقة ولكن فهمت أنها تحوي اتفاية مقنعة جداً. وذهب السلطان في صباح اليوم التالي بالسيارة مرسلاً حرسه الخاص أمامه للوفاء بوعد أو اثنين في قرى مجاورة ليحسم أمر نتائج مفاوضات بعد الظهر والتي نتجت عن الاتفاقية المذكورة أعلاه. وعند عودته تناولنا الإفطار وبينما نحن منهمكين أعلنت أصوات الطلقات عودة القوات من الجنود وعليه اندفع كل الأطفال لمرافقتهم إلى الداخل. ويتكون الحرس الشخصي للسلطان كلياً من العبيد وعددهم حوالي ٢٥٠ أو ٣٠٠ رجل وهذه الكتيبة المعيّنة عددها حوالي عشرين رجلاً لهم منظر رائع وقد قدموا عرضاً لائقاً عند قدومهم في سرعة راقصة، وهي خليط بين الجري والخطوات المتنوعة ينشدون أغاني الحرب ويطلقون ذخيرة بنادقهم. وتكلفة الذخيرة على حساب السلطان بالطبع، إذ تكلف كل اثنين أو ثلاث طلقات من الذخيرة ريالاً واحداً وبذا تكلف الاحتفالات السلطان وزواره أثناء المفاوضات جنيهًا أو جنيهين وهذا -بالطبع- مبلغ كبير في حضرموت.

أصبحت قلقاً في هذه الأثناء على السيارة الأخرى عندما لم تصل عند غروب اليوم السابق. وقد اعتقدت أن الخدم قد كتب لهم أن يقضوا ليلة أخرى في الراحة المتحضرة. وعليه فقد توقعت وصولها في الصباح الباكر. وعند وقت الغداء تعجبت لما حدث. وقد كنا جميعاً مستعدين للمغادرة عند وصول السيارة الأخرى. جاء واحد من شيوخ نهد للمفاوضات، شخص بدين اسمه حمد بن عبري وقد كان معنا في الغداء وأعلن عن رغبته أن يرافقنا في طريق العودة إلى مكة ومقابلة ابن سعود. أجبت مرحّباً ولكن نوهت له بأن يحصل على سيارة لوحده لأن ما يحمله من أمتعة سيتسبب في كسر سيارتنا. وفي تلك اللحظة وصل شخص من الذين يقومون بتسليم الرسائل جرياً من شبام تم تغييره بشخص آخر من القطن، حاملاً خطاباً من حسين آل عجاج معلناً أن سيارة الأمتعة قد كسر فيها محور العمود الخلفي.